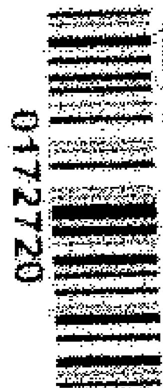
فاروق جويدة

حبيبتي ولكن



دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع

حبيبتي .. ولكن

اهداءات ٢٠٠٠
دار غريب للنشر والتوزيع
القاهرة

فاروق جويدة

حبيبتى .. ولكن

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الكتـــــاب : حبيبتي ولكن
المـــؤلـــف : فاروق جويدة
تاريخ النشــر : ١٩٩٩
رقـــم الإيـــداع : ٣٥٦٩
الترقـيم الدولي : I S B N 977 - 215 - 400 - 5

الناشـــــر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطـابـع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)
ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤
التـوزيـــع : دار غريب ١ , ٣ شارع كامل صدقي الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩
إدارة التســويق
والمعـرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

من يعيد لى قلبى ...؟

لا أستطيع الكتابة إلا بقلمى.. وفى احيان كثيرة اجد نفسى مضطرًا لاستخدام قلم آخر.. واجد صعوبة فى ذلك.. ولم أستطع حتى الآن ان أكتب بالأقلام الجافة السريعة التى تلقى عادة فى صناديق القمامة بعد انتهاء عمرها الافتراضى، وأنا أتصور أن الأقلام ينبغى أن يكون مكانها القلوب وليس مكانها صناديق القمامة .. ولكنه عصر التطور الذى أعطى للإنسان الحق فى استخدام الأشياء دون السؤال عن نهايتها.

هذا الزمان لا يحفظ قيمة الأشياء ابتداء بالأقلام وانتهاء بالبشر.. ولهذا أنا لا أكتب إلا بقلمى الحبر.. ولا أستخدم إلا الحبر الأسود. وسألت نفسى يوما: لماذا أحب الحبر الأسود؟

فاكتشفت أن الأسود هو أوضح الألوان.. ولعل ذلك هو السر الذى ربط بينى وبينه، إن كلينا يحب الوضوح.. وفى أحيان كثيرة كان قلمى يختفى تحت أى ظرف من الظروف أنساه هنا أو هناك.. وكنت أشعر بافتقاده.. إننى أحتاج بعض الوقت حتى أعتاد على القلم.. وأشعر أحيانًا أن العمر الممتد بيننا يحمل أشياء كثيرة، ذكريات عمر ومشاعر وألم.. وأن قلمى يعرف ما لا يعرفه الناس.. وربما يعرف عنى ما لا أعرف أنا عن نفسى.

وأتعجب من هؤلاء الذين يضعون أقلامهم فى كل مكان ويستطيع الواحد منهم أن يكتب بأى قلم.. إنه جاهز لإقامة علاقة سريعة حتى لو انتهت بعد دقائق.. وهذا يذكرنى بقصص الحب «الطيارى» التى تجرى فى أيامنا الآن مثل أفلام سينما المقاولات.

ولكن قلمى أقرب الأشياء لى.. وهو جزء منى.. ولا أفرط فيه أبدًا تحت أى ظرف من الظروف.. وفى أحيان كثيرة كنت أرى علامات الزمن تطل على وجهه الشاحب المجهد من ليالى السهر والألم والوحشة، وكنت أتسامر معه وأقول له: لقد خسرنا العمر معًا.. ولا ينبغى أن نحزن أو نعاتب بعضنا بعضًا.. فيقول لى: وما هو ذنبى فى كل هذا الجهد الذى تفرضه علىّ فرضًا؟ كان من الممكن أن أكون فى يد مقاول أو تاجر أو سمسار لا يستخدمنى إلا فى توقيع الشيكات.. أما أنت فلابد أن أعترف لك أنك ترهقنى كثيرًا.. وكنت أقول له أيهما أفضل: أن تعيش مع إنسان يعرف

قدرك ولا يستبدلك بقلم آخر أكثر بريقًا؟ أم تذهب مع أحد السماسرة ممن لا يدركون قيمة أى شيء؟ وكان يقتنع ويصمت.

وفى أحيان كثيرة كان يختبئ منى فى كومة من الأوراق حتى يستريح قليلاً.. وأظل أبحث عنه حتى أجده.. ويدور عتاب بسيط بيننا.. وفى أحيان أخرى كان يصاب بكسر ولا أحاول أن أستبدله بقلم آخر وأذهب به إلى أبعد مكان فى الدنيا حتى أصلحه.. وكثيرا ما تحملت نفقات سفره وعلاجه فى الخارج من تذاكر وإقامة وبدلات سفر وراحة.

ومنذ سنوات فقدت قلمًا عزيزًا عاش معى أكثر من عشر سنوات.. وفتشت عنه فى كل مكان ولم أجده.. وقضيت وقتًا طويلا حزينا عليه حتى استبدلته بقلم آخر ظل معى ست سنوات كاملة لم نفترق.. وفى الأسبوع الماضى اختفى قلمى.. وللأسف الشديد إنه نسى وحمل معه قلبى.

ووجدت نفسى عاجزًا عن الكتابة.. كيف أكتب وقد رحل الاثنان القلب والقلم.. وجلست أسترجع التذكارات مع القلب المسافر.. وأنا أكاد أسمع صوت القلم وهو يقول لى: لقد استرحت منك وسوف أبدأ حياة جديدة أكثر استقرارًا وأمنًا.

ولا أدرى هل خانتى قلمى وهرب؟ أم خاننى قلبى وأحب.. ومازلت أبحث حتى الآن عن القلم الهارب.. والقلب المسافر.

من يجد قلمًا أسود جميلاً يتمشى مختالاً فى أى مكان فى هذا الكون أرجوه أن يخبرنى بمكانه وله عندى مكافأة كبيرة.. فالمشكلة يا سادة أن القلم الخبيث هرب وأخذ معه قلبى وتآمرا علىّ.. من يعيد لى.. قلمى.. وقلبى.. يا أيها القلم.. لا تنس أنك تحمل قلب شاعر، أرجوك أن تترفق به ولا تغفل عيناك عنه لحظة واحدة.. أما أنا فلا أدرى ماذا سأفعل؟ فقد كتبت هذه الخواطر بقلم جديد أرجو أن يكون أكثر صبرًا من قلمى الهارب. فقد سألته: هل تستطيع معى صبراً؟ فصمت.

صعب على الإنسان أن يخسر القلب والقلم معًا.. ولكنه القدر.

* * *

عودة القلم الهارب .. !

أخيرًا اتصل بى تليفونيا قلمى الهارب.

جاءنى صوته من بعيد.. وشعرت أن حالته النفسية على ما يرام .. سألت القلم الهارب: من أين تتحدث؟ فقال ضاحكا: لا داعى لأن تعرف مكانى لقد قرأت ما كتبته عنى.. ولذلك رأيت أن اتصل بك واطمئنك على أحوالى.. سألت القلم؟: وكيف هربت؟.. ولماذا هربت؟.

قال: أنا لم أهرب.. لقد وجدت نفسى فجأة على الرصيف.. لا أدرى هل حاول أحد أن يسرقنى منك.. وانزويت على جانب الطريق.. وأخذت ابكى بصوت مرتفع.. وحاولت أن أنادى عليك..

ولكن زحمة الناس والطريق حالت بينى وبينك.. وفجأة بدأت الشمس تغيب.. والليل يلقى ظلاله حولى.. وبينما أنا غارق فى دموعى وجدت يداً رقيقة تمتد إلىّ وتأخذنى.

وفجأة وجدت جسدى المتعب المتهالك ينام فى صدر حنون.. وأفقت من غفوتى لأجد أمامى وجها سبحان خالقه.. إن هذا الوجه ذكرنى بتلك الوجوه الجميلة التى وصفتها يوما فى شعرك.. وكنت تصف فيها العيون الجميلة.. والأيادى الرقيقة.. والمشاعر الحانية .. وجدت نفسى أمام هذا الوجه الجميل.. وتذكرت يا صديقى شعرك وكيف عشت تحلم بهذا الوجه وتطارده وسط زحام الناس.. وتسللت مرة أخرى ووجت نفسى أنام فى حقيبة جميلة وأنواع العطر الرائع تحيط بى من كل جانب.

ومرت الأيام يوما بعد يوم.. وازداد إعجابى وتعلقى بصديقتى الجديدة ورأيت الحياة معها أكثر جمالاً وإشراقًا وأملاً من حياتى السابقة.. وأنا هنا لا أكتب كثيرا.. إنها لا تحاول أن ترهقنى .. ونسيت أيضا ثورتك وغضبك وعنفك أحيانا وأنت تطلب منى أن أطيع أوامرك وما تمليه علىّ لكى أسطره للناس.

إن صديقتى الجديدة تعاملنى برفق شديد .. فهى إنسانة رقيقة للغاية.. وكثيرا ما نحكى معا ونتحدث.. وهى إنسانة متفهمة وتعرفك وتقرأ شعرك وتعجب به.. وقد ضحكت كثيرا

عندما قلت لها بأننى أنا المبدع الحقيقى لهذا الشعر.. وأنك بعدى لن تكتب شيئا.. وقد كنت أتصور ذلك ولكننى فوجئت بك وقد كتبت بقلم آخر .. رغم أننى تصورت يوما أن كلينا لا يمكن أن يستغنى عن الآخر.. ولكن هذا حال الدنيا.

قلت للقلم الهارب: وأين تعيش الآن؟.. قال فى سعادة: لا يعنيك مكانى.. ولكن أريد أن أطمئنك على حياتى وأننى سعيد للغاية.

قلت: ولماذا لا تفكر فى العودة؟.. قال: لست حريصا على ذلك.. فأنا أشعر الآن بحجم خسارتى معك.. أعطيتك العمر يوما يوما.. ولم آخذ منك أى شىء.. أخذت أنت البريق والمجد والشهرة.. ولم يبق لى غير الإرهاق والتعب.. إننى أعيش الآن أسعد أيام حياتى.. قلب رقيق يرعانى.. وجه جميل أصافحه كل صباح.. وهذا يكفينى.. وهمس القلم فى أذنى: لقد كنت تقول لى دائما إنك لن تستغنى عنى.. واستغنيت.. وكتبت بقلم جديد أكثر منى شبابا.. وسوف تبكيه مثلما بكيتنى.. ولكنها دموع التماسيح. المهم يا صديقى أنك ستكتب بعدى وأننى لن أكون القلم الوحيد. إن صديقتى الجديدة تشعرنى بدفء الحياة.. وأحس معها أن الأيام تغيرت والأحزان رحلت.. هل نسيت أيام النكد التى كنا نضيعها معا.. أرهقتنى بأحلامك الطائشة وجنونك وحزنك.. ويكفى الذى ضاع منى.. فأنا حريص على أن أعيش بقية عمرى سعيدًا راضيا.

قلت للقلم الهارب: هل تفكر فى زيارتى يومًا؟

قال: لا تغضب منى فأنا لن أفعل ذلك.. ولا أستطيع.. ومن يدرينى إذا عدت إليك أن تلقى القبض علىّ طبقا لقانون الطوارىء ولا أستطيع العودة إلى صديقتى الجديدة.

واختفى صوت القلم الهارب ولا أدرى من حقيبة أية حسناء كان يتكلم.

* * *

حكاية القلم المشاكس

هل تذكرون قلمى الهارب.

هذا القلم الذى ضاع منى يوما وبحثت عنه كثيرًا .. ولم أجده.. ثم لمحته يمشى وبجواره وجه بشوش مبتسم.. هذا القلم الهارب فاجأنى بزيارة مريبة وغريبة فى ليلة رأس السنة.

كنت أجلس كعادتى فى مكتبى أراجع أوراق عام مضى.. وأتصفح ما كان منه.. وما كان فيه.. وفجأة رأيت القلم يقف أمامى مبتسمًا.. ولم أتمالك نفسى من السعادة واندفعت نحوه أعانقه.

قال: كنت أعرف أنك ستكون وحيداً الليلة.. كنا دائما نقضى هذه الليلة معا.. وكان لدى إحساس غريب بأنك سوف

تجلس وتنتظرنى.. ربما ودعنا العام معا.. ربما جاءك صوتى من بعيد أقول لك كل سنة وأنت طيب.

ولكن ما أكثر الأشياء التى ننتظرها.. ولا تجىء.

وقلت لنفسى لماذا لا أفاجئه الليلة بالزيارة.. ولا أنكر أننى اشتقت كثيرا إليك.. إلى جنونك.. وشطط أحلامك وسألنى.. مازلت تحلم؟

قلت له: أحاول أحيانا رغم أن الزمن لا يسمح الآن بظهور الأحلام الكبيرة. إنه زمن قصير القامة.. ولذلك يفضل القامات القصيرة فى كل شىء ابتداء بالسياسة وانتهاء بالفن.

قلت للقلم.. ولكن يبدو أنك مرهق من رحلة سفر طويلة.. وماذا عن أخبارك أنت؟

قال: أحيانا أشعر بالوحدة.. وأحيانا أشعر بالوحشة.. ولكننى دائم الاطمئنان عليك.. أقرأ ما تكتب، وأسمع أخبارك كلما أتيح لى ذلك.. وأحسدك أحيانا لأنك مازلت تحلم، وتتفاءل فى حزن.. وأنا لا أخاف أبدًا على إنسان مازالت لديه القدرة على أن يحلم.. الموت الحقيقى هو أن نفقد القدرة على أن نحلم.. وإن كانت كتاباتك الأخيرة فيها نغمة حزن تؤلمنى أحيانًا.

سألت القلم: وما أخبارك قلبك؟

قال: مازلت أعيش قصة حب.. أشعر معها بسعادة عجيبة..

وفى أحيان أخرى أجد نفسى فى قمة التعاسة.. أرانى قريبا حينا.. ثم أبدو بعيدًا.. نتوحد أحيانا.. وننشطر أحيانا.. ولكن الشىء الذى يعزينى فى هذا كله أننى مازلت أحب.. ولكن الأحوال تبدو فى عينى مثل أمواج البحر.. مرة أراه هادئا جميلا رائعا.. ومرة أراه ثائرًا مجنونًا يطيح بكل شىء.. ولكننى أصبحت الآن أعرف طباع البحر.. ومتى يثور ومتى يهدأ.

ورأيت القلم يطوف فى مكتبى.. يمسك الأوراق هنا.. ويلقى الكتب هناك.. ونظر على المكتب فوجد قلمًا يشبهه.. نفس الوجه.. ونفس اللون.. ونفس الملامح.. قال استبدلتنى بقلم آخر.. كيف وجدت شبيهى هذا.. إنه بلغة الفن «دوبليره».. إنه نسخة ممسوخة منى.. إنك فقط تحاول أن تملأ فراغ أيامك فجئت بهذا القلم.. ولكننى أعلم أنك لن تعوضنى.. وأن هذا القلم لن يكتب كما كتبت.. ولن يحب كما أحببت.. أليس كذلك؟.. ووجدت القلمين وقد اشتبكا فى معركة حامية.

وحاول كل منهما أن يطرح الآخر أرضا.. وارتفع صراخ القلم الضيف يحاول طرد القلم الجديد.. وحاولت تهدئة الموقف بينهما.. وكل منهما يطلب من الآخر أن يخرج، وطالت المعركة بينهما.. وتدفق بينهما حبر غزير.. ونظرت للحبر وهو يسيل فوق الأوراق وكنت أتساءل بينى وبين نفسى.. هل هذا حبر.. أم هذا دمى؟.

* * *

محاكمة القلم الهارب .. !

تدخلت قوات الأمن لفض المعركة بين قلمى الهارب والقلم الجديد، وتقدم منى أحد الضباط وقال: لابد أن نذهب إلى قسم الشرطة لعمل محضر باعتداء القلم الهارب، ويتحول الاثنان على النيابة لأنه كما يبدو أن القلم الجديد أصيب إصابات فادحة ربما فقد النطق بعدها والكتابة.

وبدأت اجراءات الأمن والشرطة والنيابة ووجدت نفسى أنا والقلم أمام القاضى.

سأل القاضى القلم الهارب: ما شكواك؟ قال: أريد قرارًا من المحكمة بحقى فى مؤلفات هذا الرجل وأشار علىّ.. كل الدلائل

عندى تثبت أننى كاتب هذه المؤلفات وأريد أن تكون عنده الشجاعة ويعلن ذلك ويعيد لى اعتبارى وحقى الأدبى.. سأل القاضى القلم الهارب: هل لديك شهود؟ قال: نعم.. واتجه إلى داخل القاعة واقترب من المنصة ومعه امرأة جميلة للغاية.

ونظرت لوجه المرأة التى تقف بجوار قلمى.. سبحان المبدع الخلاق.. وجه جميل يذكرنى بالسيمفونيات الجميلة قبل ظهور موسيقى الروك والجاز وحسب الله والأغنية الشبابية.. عيون تذكرنى بأنهار الدنيا الشامخة قبل أن تجىء عصور القحط والتلوث.. نخلة شامخة تذكرنى بحدائق الكون الواسعة والفسيحة قبل أن تهبط على رؤوسنا طائرات البيتزا والهامبورجر والأطعمة الفاسدة.. عيون تذكرنى بضوء القمر قبل أن نعرف زمن اللعب الفوسفورية وشاشات التليفزيون ومسلسلاتها الكئيبة.

ولم اعد اذكر شيئا وانا ارى هذا الوجه الجميل يقف بجوار قلمى.. ولا أدرى همست فى أذن القلم وقلت له: أنت تذكرنى بفطوطة.. فصرخ فى وجهى وقال: كفاك حقدًا.. وقلت له: من أين جاءك هذا الجمال؟ فقال: مكافأة من الله على صبرى عليك وتحملى لأيام النكد التى عشتها معك.. وسأله القاضى: تقول إنك الكاتب الحقيقى لأعمال هذا الرجل؟ قال القلم: نعم.. قال القاضى: وأنت الكاتب الحقيقى لمسرحياته.. قال القلم: نعم.. قال القاضى: وقصائده السياسية التى هاجم فيها.. ومقالاته وخواطره.. أجاب

القلم: كل هذا كتبته وحدى.. سأله القاضى: ولكنه كان يهاجم الحكام وتكلم كثيرا فى السياسة.. وتلعثم القلم وقال: ماذا تقصد يا سيادة القاضى.. قال القاضى: هذه الكتابات تقع تحت طائلة القانون.. فصرخ القلم وهو يشير إلىّ: احبسوه احبسوه.. فقال القاضى: إذا كنت أنت الكاتب الحقيقى ينبغى أن نحبسك أنت.. وصاح القلم مذعورا: أنا لم أكتب شيئا.. لم أكتب شيئا.. وخرج من القاعة مسرعا ومعه الوجه الجميل الذى رأيت فيه أجمل قصيدة كتبها شاعر.

ونحن نقف على باب القاعة سألت القلم لماذا لا نرجع معًا نحن الثلاثة.. وننسى كل ما حدث.. فقال: تريدنا نحن الثلاثة أم تريدنى وحدى، لا داعى يا صديقى لهذه «الحركات».. أنت لا تريدنى لشخصى ولكن تريدنى من أجل هذا الوجه الجميل الذى أضاء حياتى.. وأنا لا أقبل أن أكون «طرطورا».. إننى أحبها.. وأصبحت فى حياتى كل شىء.. ولا داعى أبدًا لأن تحرج نفسك معها ومعى.. إنها تحبنى واختارتنى دون خلق الله جميعا.. وأعيش معها الآن أسعد أيام حياتى.. وأنا متنازل لك عن كل شىء.. مكافأة نهاية الخدمة.. وبقية المرتب.. وسنوات العمر الضائع معك، كل ما أرجوه منك أن تمضى الآن وتتركنى معها فى حالنا.. إن حياتنا جميلة وهى إنسانة رقيقة طيبة.. وأنا أحبها.. وهى تحبنى.. ما شأنك أنت.

قلت: لماذا لا نحاول أن ننسى الخلافات ونعيش معا .. قال القلم: أريد أن أطوى صفحة أيامى معك.. أرجوك إنسانى.. قلت: وكيف سأكتب بعدك؟ .. ووجدت يدا رقيقة تمتد إلى حقيبة سوداء جميلة وتخرج قلما .. وهمست: هذا قلم آخر تستطيع أن تكتب به، أما نحن فلن نفترق أبدًا .. وضحك قلمى الهارب ضحكة خبيثة ووقفت أنظر نحوهما وهما يسيران جنبا إلى جنب.. وتمنيت لهما السعادة وأخذت القلم الجديد وتمنيت أن يكون أكثر عقلا وحكمة من قلمى الهارب المجنون.. ما مستقبلى مع القلم الجديد.. الله أعلم.

* * *

المكان .. محاصر ..

سمعت ضجيجًا وصوتًا عاليًا خارج غرفة مكتبى بالبيت.. وفجأة وجدت قلمى الهارب يندفع إلى المكتب بلا استئذان.. وجلس القلم أمامى غاضبًا.. وقال: قرأت مقالتك الأخيرة عن حديثنا التليفونى.. وشعرت أنك تتهمنى بالجحود.. كما أنك أسأت إلىّ فى هذا المقال.. وليس معنى أننا افترقنا أن نعلن الحرب على بعضنا.. لقد قلت كلامًا غريبًا.. وأنا أفضل أن نفترق ونحن أصدقاء ولا نفعل ما يفعله الأزواج والأحباب فى هذا الزمن حينما يهدمون المعبد على كل ما فيه قبل أن يفترقوا.

ووقف القلم غاضبًا وقال: أنت تسخر منى لأننى قلت إننى

كتبت كل أشعارك وخواطرك.. وإننى الكاتب الفعلى لكل هذا.. هل تستطيع أنت أن تقسم على غير ذلك؟ فقلت له: هذا ادعاء كاذب يذكرنى بما قاله سكرتير طه حسين يومًا من أنه المؤلف الحقيقى لكتب طه حسين.

قال القلم: هل تنكر أننى كتبت بدمى كل ما نشرته أنت؟ على كل حال أنا لا أريد مزيدًا من الحساسية.. وفجأة وجدت القلم يضع ساقًا على ساق ويقول: أريد أتعابى عن خدمة السنوات الماضية.. كل شىء فى الدنيا يحصل على مكافأة نهاية الخدمة.. فى الحكومة والقطاع الخاص.. وهناك معاش يصرف للإنسان بعد أن يدخل مرحلة الشيخوخة.. وأنا جئت أطالب بمكافأة نهاية الخدمة.. أنا لا أريد معاشًا حتى لا نرى بعضنا بعد ذلك.. وفى كل مرة نختلف ونتشاجر وننشر فضائحنا ومعاركنا على الناس.. وأنت إنسان لا تحفظ السر.. سرعان ما كتبت كل ما دار فى مكالمتنا الأخيرة، وهذا فعلا أغضبنى.. لقد حفظت سرك عمرى.. ألا تحفظ أنت سرى فى مكالمة تليفونية واحدة، حاولت فيها أن أسأل عنك.

قلت للقلم الهارب: كل ما تطلبه أوامر.. أما مكافأة نهاية الخدمة فسوف أدفع لك ما تريد.. وإذا أردت معاشًا شهريًا فأنا مستعد لذلك أيضًا. قال: وحقى الأدبى؟ قلت: وما هو هذا الحق؟ قال: أن تعلن للناس أننى كتبت كل أعمالك. قلت: سوف أعلن ذلك.

وفجأة وجدت القلم يهمس فى أذنى: هل عرفت آخر أخبارى؟ قلت: ماذا حدث؟ قال: أعيش قصة حب جميلة مع صديقتى التى حدثتك عنها.. إنها تنتظرنى أسفل البيت.. إنسانة رقيقة إلى أبعد الحدود.. إنها أجمل بكثير من كل ما كتبت كل من قصائد وأشعار.. سألته: ولماذا لم تحضرها معك؟ قال: أنا لا أحب أن تراها.. لقد اختلفنا معًا كأصدقاء ولا أريد أسبابًا أخرى تشعل الخلاف بيننا.. أنا لاأريد المزيد من الحساسيات.

قلت: وكيف حالك معها؟ قال: أنا سعيد جدًا فى حياتى الجديدة أحاول أن أستريح.. لقد تعبت كثيرًا وبنيت أمجادًا لغيرى.. حتى أنت يا صديقى لم تحاول أن تسأل عنى.. قلت: لقد كتبت مقالاً أناشدك فيه العودة.. قال: لم تتصل بأى قسم بوليس او مستشفى أو أحد من الأصدقاء لتسأل عنى.. لقد اكتشفت أننى كنت أعيش معك أكذوبة كبيرة.. بعد كل ما أعطيت انتهت القصة كلها فى رثاء جميل كتبته عنى وأنا حى أرزق.. ربما كنت تحاول أن تبرئ ضميرك الذى أهملنى.. قلت للقلم الغاضب: أنا لم أهملك. قال: ولذلك لم تستبدلنى بقلم آخر.. ما هذا الذى يجلس أمامك؟ وفجأة وجدت القلم المجنون يمسك برقاب قلمى الجديد على المكتب.. واشتبك الاثنان فى معركة شرسة حامية.. ووجدت الحبر الأسود يتدفق بغزارة على الأوراق.. وحاول القلم الهارب أن

يلقى بقلمى الجـديد من نافـذة الغـرفـة.. وارتفع صـراخـهـمـا فى البيت.. ووجدت قوات الشرطة والأمن المركزى تحاصـر المنطقة من كل جانب .. ولم أعرف حتى كتابة هذه السطور حجم الخسائر من الجانبين.

* * *

ما بقى لنا .. أجمل مما ضاع

قالت: تعال نسأل أنفسنا.. ماذا نفعل لو رجع العمر بنا للوراء.. ما هى الأشياء التى يمكن أن نسقطها من حياتنا.. ومن هى الأشياء التى سنبقيها؟

قلت: لو رجع بى العمر لاخترت أن ألقاك الآن.

أجمل الأشياء التى تجىء فى مواسمها .. وفى عصرنا الحديث يحاول العلم أن يجىء بالأشياء فى غير أوقاتها.. حتى الفاكهة كانت لها مواسم .. وكنا ننتظرها فى مواسمها بشوق ولهفة.. ولكنها الآن تجىء فى كل الأوقات ومتوافرة على الأرصفة.. ولهذا لا نشتاق إليها كثيرًا.

وأنا أعتقد أن افتقاد الأشياء أحيانا يولد فينا الأشواق والرغبة.. وأن أسوأ ما فى الإنسان أن يشعر أنه امتلك شيئا.. من هنا تبدأ رحلة التراجع.. ولو عاد بنا العمر مرة أخرى لاخترت أن أمشى نفس الطريق.

لاخترت أن أعيش بنفس الجدية التى سلكتها منذ بداية حياتى.. هذه الجدية التى تمثلت دائما فى احترام العمر.. والمسئولية.. ومراقبة الضمير.. وأن أقول كلمتى وأمضى والرزق على الله.

ربما خدعتنى الأيام فى بعض الناس، أصدقاء أخلصت لهم وأحباء أعطيتهم العمر بسخاء.. ولم أندم يوما على إخلاصى حتى ولو خدعت.. ولم أندم على عطائى حتى ولو كان المقابل الجحود والجفاء.

إننى أومن عن يقين أن سعادتنا تبدأ داخلنا.. وأن السعادة فى العطاء ربما تفوق السعادة عما يعطيه لنا الآخرون.. وأن الإخلاص أجمل بكثير من إبهار الخيانة.. وينبغى ألا نندم على حب أو إحساس عشناه يوما بكل الصدق.. فسوف تكشف لنا الأيام أن ما بقى داخلنا من مشاعر الحب كان أجمل وأبقى مما بقى فى أعماق إنسان تخلى عنا أو غدر بنا.. لأن الذى يصنع الفضيلة لا يندم عليها.. والذى يرسم خطوط الجمال لا يعنيه أبدا أن يرسم غيره أشكال القبح.

ولو عاد بى العمر للوراء لاخترت أن أكون أكثر صلابة مع الناس، إن المشاعر تجنى كثيرا على أصحابها خاصة فى هذا الزمن القبيح.. والصلابة لا تعنى البلادة.. ولكنها تعنى فى رأيى أن يحاول الإنسان أن يضع ستارا حول ذاته يتوقى به حماقات الناس وسفههم وعدوانيتهم.. وليس ذلك بدافع الضعف.. ولكنه رغبة فى حماية تلك الأشياء الجميلة التى تعيش داخلنا ونجدها أحيانًا تتكسر منا أمام قسوة الآخرين.

*ولو عاد بى العمر للوراء لتمنيت أن أعيش زمانا آخر أكثر إنسانية ورحمة.. إن زماننا ملىء بالإنجازات الحضارية والمادية العظيمة، ولكن هذه الإنجازات دمرت فينا أشياء كثيرة.

قتلت فينا جوانب كثيرة من إنسانيتنا.. و حولتنا فى أحيان كثيرة إلى مجرد أدوات تؤدى ما عليها من واجبات.

دمرت فينا قيمًا جميلة كالرحمة.. والعطاء وحب الآخرين والرغبة فى مشاركة الناس أحزانهم وأفراحهم وأمانيهم.

قتلت فينا الجوانب الروحية الجميلة التى كانت تغنى الفقير لأنه قانع.. وتسعد الغنى لأنه سخى.. وتعطى للحياة جلالا وجمالا.

لأننا نشعر دائما أن السعادة لا تتجزأ.. وأن العمر أخذ وعطاء.. ولهذا كنا نجد الرجل الوفى.. والمرأة القانعة الرقيقة..

وكانت البيوت مليئة بالحب والدفء والرحمة قبل أن تمتلىء «بالكراكيب» والثلاجات وأجهزة الفيديو.. وكانت سعادة المرأة أكبر لأنها تحب وهى لا تملك شيئا.. وقناعة الرجل اوسع وهو يجرى وراء رزقه ولا يريد سوى الستر .. والصحة.

وامتلأت الخزائن بالمال.. ومعها عششت عناكب الجشع فى قلوب الناس.

وامتلأت البيوت بالكراكيب.. ولم يجد الحب مكانا وسط هذا الزحام فحمل حقائبه .. ورحل.

وامتلأت البطون بالطعام.. فتراجع نبض القلوب.. وخفتت لغة المشاعر.

هذه هى الحياة الآن.. وهى حياة كان من الممكن مع العلم والتكنولوجيا أن تكون أجمل لو أنها كانت أكثر إنسانية.

قالت: ولو عاد بنا العمر للوراء .. هل كنت تحبنى؟

قلت: أريد أن أحبك الآن.. لأننى اخترتك من بين آلاف الوجوه.. وأحببتك بعد رحلة عناء طويلة.. ومن الخطأ أن نلتفت إلى الوراء ونحن نمشى إلى الغد.. ما بقى أمامنا أجمل بكثير مما ضاع منا.

* * *

هل يكفيك قلبى ؟

قالت: تمنيت أن أحبك فى زمان آخر.. أكثر إحساسا.. وأكثر إنسانية وتقديرًا لمشاعر الناس.. كثيرا ما أرى نفسى ومشاعرى شيئا يختلف عن الناس.. مازال فى أعماقى قلب ينبض.. وضمير يتساءل.. ووجدان حى لم يفسده الزيف.. تخيل مثلا أننا التقينا فى أزمنة العشق الأولى حينما كان للمشاعر طعم.. وللقلوب مكانة.. أزمنة الرومانسية التى أضاعها الإنسان وضاع معها.

كثيرًا ما أصحو من النوم وأجد وجهى مشرقا دون أن أضع شيئا عليه.. أراه مشعا صافيا.. وأسأل نفسى ساعتها ما الذى

عكس كل هذا الجمال على وجهى.. وتكون الإجابة أننى أشعر بشيء ما بداخلى يسعدنى.. وكثيرا ما كنت أنظر لوجهى فى المرآة وأنا ارتدى أجمل الثياب وأغلاها وأرى نفسى حزينة شاحبة.. وأقول: إن الإنسان هذا المخلوق الغريب تسعده لحظة صفاء يجد فيها نفسه.. ولا يرضيه عمر كامل من الأكاذيب، ولهذا كنت أتخيل أن أحبك فى زمن آخر.. أرى الكون أشجارًا وليس مجرد أعمدة خرسانية تعمى العيون.. أرى القمر مضيئًا رغم أنف كل أساليب الإضاءة الفوسفورية الحديثة.. أراك بحرًا ونهرًا وأشجارًا وحياة.. نسافر فى أعماقنا أكثر مما نسافر فى عواصم العالم.. ونسبح فى وجداننا أكثر مما نعانيه مع الناس من كل مشاعر السخط والحقد والكراهية.. أنظر إليك أحيانا وأتمنى لو احتوتك عيناى.. حتى لا ابحث عن وجهك خلف مرايا الزمن الصعب الذى نعيش فيه.. أتمنى لو أننا فى لحظة عشق أبدية صرنا كيانا واحدًا لا يفرقنا شيء.. ولا تفصلنا مسافات ولا أوطان.. ولا جوازات سفر مزورة.. أتمنى أحيانا لو تخلصت من كل الأشياء حولى وجئت إليك نعيش زمانا جديدا ونطوى معا كل صفحات الماضى القبيح.. لو أن الإنسان استطاع يوما أن يعيد عقارب الزمن للوراء لتمنينا مما أن نلتقى ونسدل الستار على كل شيء ونبدأ من جديد.. أريد زمانا جميلا حالما .. أحبك فيه.

قلت: وأنا أريدك فى هذا الزمن الذى نعيش فيه.. أنا لا

أستطيع أن أصنع زمانا أريده.. ولكننى أستطيع أن أحبك الآن.. رغم أنف هذا الزمن.. إن الإنسان يملك نفسه وقراره ولكنه لا يملك زمانه.. ولذلك أنا سعيد أن أحبك فى زمن لا يعرف الحب.. وأشتاق إليك فى زمن خاصم الأشواق وطاردها واستباح كل شىء فيها.. كنت أتمنى وأنا معك أن نرى فى الحديقة زهورا غيرنا.. ولكن ماذا نفعل إذا كان قدرنا أن كل شىء حولنا يغتال المشاعر ويقتل القلوب؟ أعرف أنها تجربة صعبة أن يكون الإنسان هو السباح الوحيد فى بحيرة غرق كل ما فيها.. أن يبقى الإنسان حيا وكل ما حوله يموت.. أن تبقى فى أعماقه شجرة خضراء وتحاصره من كل جانب مساحات صفراء من الصحارى الممتدة.

أيهما أجمل أن نبقى أحياء أم نصبح أمواتا مثل الآخرين؟ أن أرى عينيك وطنا وملاذا أم أفقد القدرة على الإبصار؟ أن أحتوى فيك عمرى أم يصبح عمرى مشاعا لكل من هب ودب؟ كنت أتمنى مثلك أن نمشى معا وحولنا آلاف من العشاق.. ولكننا نملك أن نحب وليس من حقنا أن نصدر فرمانا بتحويل مدينة الموتى لمدينة العشاق.. كنت أتمنى أن أجمع الحب والزمن فى وقت واحد.. أن يكون ما بداخلنا صورة لما يحيط بنا.. أن نرى الحب فى أنفسنا ونراه فى عيون الآخرين.. كنت أتمنى أن أحقق لك ما تريدين ولو أننى وجدت نفسى يوما حاكما لهذا العالم لجلسنا معا فوق قمة

الكرة الأرضية وأعلنا سقوط أنظمة القبح.. والخوف.. والكراهية.. لتعود مرة أخرى دولة الحب لتحكم هذا العالم.

كنت أتمنى أن أحبك وليست هناك هذه المساحات الشاسعة من الكراهية تحيط بنا من كل جانب.

ولكن ماذا سنفعل إذا كان قدرنا أن نغنى الحب فى زمان «أطرش» .. ونزرع الحلم فى أرض يائسة.. وننشر الود فى أيام فقدت المشاعر والرحمة.. لا تطلبى منى أن أغير لك العالم ولو كنت أستطيع لفعلت .. أنا لا أملك زمانى.. ولكن أملك قلبى.. فهل يكفيك هذا القلب وطنا وزمانا؟

* * *

من يحكم بيننا ؟

قالت: أريد أن أحبك بعقلى.. بالعقل نضمن بقاء الأشياء.. ونرتاح إلى أن قراراتنا لك وراءها تفكير ودراسة.

قلت: وأنا أريد أن أحبك بقلبى.. بالقلب نضمن عمق الأشياء.. ونرتاح إلى أن قراراتنا كانت اختيارا قدريا ليس لنا إرادة فيه.

قالت: تقول اختيارا ليس لنا إرادة فيه.. أى أنك أحببتنى بلا إرادة منك.

قلت: ومن منا كانت له إرادة فى أساسيات الحياة.. ليس لنا إرادة فى الحياة.. وليس لنا إرادة فى الموت.. وليس لنا إرادة فى

الحب.. أهم الأشياء فى الدنيا ليس لنا إرادة فيها.. هل يستطيع الإنسان أن يؤجل ولادته يوما واحداً؟.. هل يستطيع الطب فى الدنيا كلها أن يمنح الإنسان يوما واحداً أطول من عمره؟ .. هل استطيع أن أقرر بينى وبين نفسى أن أحب فلانا؟

قالت: أنت رجل حرفتك الكلام.

قلت: أنا حرفتى الكتابة - وليس لى فى الكلام - والفرق بين الكلام والكتابة.. أن الكلام حديث اللسان.. والكتابة حديث القلب.. وإن كنت فى الحالتين لم أكذب عليك فى شىء.

قالت: أريد طرفا محايدا يحكم بيننا.

قلت: وما القضية؟

قالت: كيف أضمن بقاء الحب؟ كيف أثق أن ما بيننا ليس نزوة عابرة لن تبقى طويلا؟ لقد جاءنا الحب فجأة وأخشى أن يموت بالسكتة القلبية.. وكما جاء يرحل .. وأنا لا أحتمل ذلك أنا لا أقبل أن أكون مجرد نزوة فى حياة رجل حتى ولو كان هذا الرجل أنت.. ولا أحتمل صدمة وجراحا لقلبى الصغير.

قلت: أما أن الحب يجىء فجأة فهذا واقع لا أنكره.. ليس للحب مواسم كما أقول دائما.. وأما نزوات الرجال.. فأنا لست من تلاميذ مدرسة النزوات.. ولا أستطيع ذلك.. ولا أقدر عليه.. أنا إنسان لا أفعل شيئا على الإطلاق إلا إذا اقتنع به قلبى..

وضميرى.. وقلبى لابد أن يشعر.. وضميرى لابد أن يستريح.. وإذا فعلت شيئا من وراء قلبى نهرنى.. وإذا فعلت شيئًا من وراء ضميرى عذبنى.. وأنا لا اتصور أن أقول لك أحبك من وراء قلبى.. وأن يكون ما بيننا مجرد نزوة عابرة أخدع بها ضميرى.. لقد جئتك مختارا وليس هناك مبرر على الإطلاق لأن أختار طريقا أعرف مقدما أننى لن أكمل المشوار فيه.

قالت: وما ضمانات قلبك؟

قلت: ليس لدى رصيد من المال لأكتب لك ضمانات مادية.. وليس لدى ثقة فى العمر لأعطيك شيكا على بياض على ما بقى من عمرى.. وليس لدى رصيد من الأحلام فقد أفلست أحلامنا منذ زمان بعيد.. ولكن مازال عندى رصيد ضخم من المشاعر.. لا استطيع أن أمنحك شيئا اكثر من الحب.. هذا إذا كان الحب يكفى فى هذا الزمان.

قالت: وكيف أثق فى هذا الحب؟

قلت: لنترك الأيام تحكم بيننا.. ربما بعد عام.. بعد عامين.. بعد ثلاثة.. ما بيننا شىء اسمه الحب.. وجئناه اختيارا.. وهو شىء لا يباع ولا يشترى.. وليست له مزادات مثل بقية العلاقات الإنسانية الأخرى.. وليست له صكوك أو بوالص تامين.. وبعد عامين.. وربما خمسة.. هذا إذا امتد العمر .. ستدركين أن

ما بيننا كان أكبر من إرادتنا .. وأعمق من خيالنا .. وأطول عمرا من كل ظلال الشك التى حامت حولنا.

قالت: ومن يحكم بيننا إذا اختلفنا؟

قلت: الأيام.. والمواقف.. فالأيام تكشف معادن الأشياء والبشر.. والمواقف تكشف عمق المشاعر وصدق القلوب.

قالت: ولكن عقلى يقول إنها نزوة.

قلت: وقلبى يقول إنها حب.

قالت: حاول أن تعيد ما قلته مرة أخرى.. ربما اقتنعت .. أريد أن اقتنع.

..... وصرخت.

* * *

لا حرية مع الحب

من أجمل الأشياء أن تجد إنسانا لا تعرفه يقدم لك فى وحشة الأيام زهرة.. وأن تجد وأنت تمضى وحيدًا من يضئ لك فى الطريق شمعة.. لقد اعتاد الناس فى زماننا أن يجتمعوا حول مائدة المصالح.. إذا كان لهم شىء عندك فهم حاضرون.. وإذا لم يكن لهم شىء عندك فهم غائبون.. وأصبح هذا هو قانون العلاقات الإنسانية.. أصبح الأفراد يتعاملون الآن بمنطق العلاقات الدولية.. من أجل المصالح نتجاهل المبادىء.. ومن أجل الغايات نفعل كل شىء.. إن حكومات العالم تختلف بعرض الكون وتتفق فى لحظة حول صفقة أو مواجهة أو مؤامرة.. وكذلك الناس يمكن أن تجد

على مائدة المصالح أشخاصًا يوزعون الابتسامات والقبلات.. وتحت الموائد نجد سهاما ودماء.

وفي وسط هذا المناخ القبيح يسعدك أحيانًا أن تجد يدًا تمتد إليك وسط الزحام وتعطيك وردة.. قد لا ترى من هو صاحب هذه اليد، ولكنك ترى الوردة وتسعد بها دون أن تعرف صاحبها.

إن رسالة صغيرة يمكن أن تحمل لك إحساسا عميقا بالسعادة.. يمكن أن تشعر من خلالها أن أشعة الشمس مازالت تدور وأن ضوء القمر يتسلل في ليل الأحزان الطويلة.. وأن معادن الناس وإن كان أغلبها رديئا إلا أن بينها قطعا من الماس تشرق أحيانا في السراديب الموحشة.

وفي أكثر اللحظات تشاؤما تجد نقطة ضوء بريئة تتسلل كالصبح فتملأ الأيام بهجة وأمانًا.

بعض الناس الذين لم أقترب منهم كثيرًا أسعدوني بهذه اللمسات الصغيرة الحانية.. بطاقة صادقة في مناسبة.. كلمة عابرة في الطريق.. نظرة عرفان لا ثمن لها.. كلمة تقدير بلا غرض أو هوى.. هذه الأشياء الصغيرة التي تشعر بها دون ترتيب أو إعداد أو مقدمات تحمل لنا بعض الجوانب الخفية التي نشعر بها أكثر مما نراها.

قد تعيش مع إنسان سنوات طويلة وتنتظر منه كلمة جميلة.. وحين تسمعها من إنسان آخر تتمنى لو جاءت من هذا الشخص الذى عشت معه.. وفى بعض المناسبات تنتظر صوت إنسان وتتدفق عليك أصوات من كل نوع.. ولكن الصوت الذى تنتظره لا يجىء.. وتتمنى لو سمعت هذا الصوت وأغلقت التليفون ورحت فى نوم عميق.

والشىء الغريب أن تتمنى شيئا مع شخص تحبه.. ويبقى هذا الحلم فى دائرة المستحيل.. ثم تراه بين يديك مع شخص آخر. وهنا تكون مفاجآت الأقدار.. تعطينا أحيانا ما لا نريد .. وتسلبنا ما كنا نريد.

جاءتنى يوما امرأة غاية فى الجمال والرقة.. تحب زوجها حبًا مجنونًا بينما هو يحب امرأة أخرى.. وحكت لى حكايتها مع أصدقاء زوجها الذين يحسدونه عليها.. وهو غارق فى حب امرأة أخرى وهذه الأقدار الغريبة تشعرنا بالتعاسة والحزن.. إن أشد لحظات الألم أن تسمع كلمة جميلة من شخص ما.. بينما هناك إحساس عميق داخلك يتمنى لو سمعتها ممن تحب. إن المرأة على سبيل المثال تسمع حكايات كثيرة من الإعجاب بها والغزل فيها.. ولكنها تتمنى كلمة حب من رجل تحبه.. والرجل لا تعنيه أبدًا عشرات الوجوه الجميلة التى تحيط به.. لأنه يرى فى كل وجه منها عيون حبيبته التى يتمناها.

من هنا تبقى مشكلة محطات السفر.. لا يعنيك أبدا أن ترى وجوها كثيرة فى قطار يسير عكس الاتجاه.. مهما طال الوقت فسوف يمضى كل منكم فى طريق.. ولكن المهم أن يجمعنا قطار واحد مع من نحب فى طريق واحد.

نساء الدنيا لا تغنى عن امرأة سكنت القلب.. وفرضت عليه سلطانها وأعلنت فيه الأحكام العرفية وصادرت كل الصحف والمجلات وأغلقت المجالس النيابية واختارت الديكتاتورية وحكم الفرد طريقا لها.. لا حرية مع الحب.

* * *

امرأة تمنيت أن أحبها . .

لا أدرى كيف تسلل بريق عينيك وانساب فى أعماقى.. يعلن ميلاد غابة جديدة فى صحراء أيامى.. كان الضوء المتدفق بين أطياف الظلام ولاحت أمام عينى تلال الظلام وهى تتساقط تلا وراء تل.. وما أعجب الحياة حين تفاجئنا بهذه الظواهر الخارقة التى تغير مسيرة الأشياء.

لم أعرف حتى الآن ماذا حدث.. وكيف حدث.. من الذى أنبت فى رحم الليل خيوط الفجر الجميلة.. ومن حمل عن كاهلى عبء أشباح كئيبة من الوحدة.

كنت دائمًا أشعر أن الأيام تعاندنى .. وأن الزمن يمد دائمًا جسور القطيعة بيننا.. فكيف تبدلت الأيام.. وهدأت زوابعها ..

وكيف استكان الزمن وحطم جسور القطيعة، حينما تسلل بريق عينيك إلى قلبى شعرت أن هذا الشعاع ليس شيئًا غريبًا .. أكاد أعرفه.. وحينما صافحته شعرت بدفء يديه واحتوانى فى لحظة خارج حدود الزمن.. ورأيت نفسى مستسلمًا لإحساس غريب لا أعتقد انه كان غريبا على قلبى.. شعرت أن هذا الإحساس يسكننى من زمان بعيد.. وكان ينتظر مجيئك .. وأنك كنت تسكنين أعماقى ولا أدرى، وقضيت عمرًا هائمًا بين الناس ابحث عن وجه لم يفارقنى لحظة.. وأطوف فى الشوارع أطارد الأحلام رغم أن الحلم ليس ببعيد.. هل يمكن أن يحتفظ الإنسان بشخص آخر فى أعماقه وهو لا يعرف مكانه؟ هل يمكن ان نحتوى إنسانًا داخلنا ولا نعرف الطريق إليه؟

فجأة وجدت نفسى أحبك .. ولا أعتقد اننى أعيش عمرًا من المراهقة.. سواء كانت مراهقة الصغار أم الكبار.. ولكن الذى اكتشفته فى نفسى أن هناك شجرة كبيرة مثمرة تسكننى ولا أعرف مكانها .. شعرت ساعتها أننى قضيت أياما طويلة أفتش عن شجرة فى حديقة أيامى، وتمنيت أن أراها.. وكنت دائمًا أشعر انها لابد أن تنبت يومًا.. ولكنها لم تكن بذرة رعيتها مع الأيام.. لقد ظهرت فجأة كاملة متكاملة بأغصانها.. وثمارها وخضرة وجهها الجميل.

فكيف اختفيت كل هذا العمر داخلى.. وكيف غبت عنى كل

هذا الزمن الطويل.. ولماذا قضيت أيامى أبحث عن وجهك فى كل وجه أراه.. وأرى عينيك فى آلاف العيون التى مرت أمامى وطافت على عمرى.

كيف عشت سرًا لا أعرفه.. ولا يعرفه أحد غيرى.. هل يمكن أن يكبر شىء داخلنا ونحن لا ندرى هل يمكن أن يولد الحب عملاقًا يمشى ويتكلم ويتشاجر.. ونحن لا نشعر به.. إن هذا ما حدث صدقينى.

رأيتك تسكنين دمى.. وتعيشين فى قلبى.

إننا أحيانا نثور ونغضب ونلعن الأيام التى شردتنا.. والزمن الذى كسر الأحلام فى أيدينا.. ونطارد الأحلام.. ونتسولها على الطرقات.. ونستجدى الزمن لعله يكون يوما رحيما بنا.. ولا أدرى لماذا فتحت مع الزمن صفحة جديدة.. لماذا أغلقت كل دكاكين الماضى وأعلنت إفلاسها وبيعها فى مزاد عام .. لماذا قررت أن اتخلى عن كل الصحارى الممتدة التى كنت أمتلكها وقررت أن يكون حبك هو حديقة أيامى.. وأن يكون قلبك دون كل الناس الوطن والملاذ .. وحينما حاولت أن أسأل قلبى عن كل هذا، قال فى سعادة هذه امرأة تمنيت أن أحبها.. وقد حدث.

* * *

فى آخر الكون ..
إنسان أحبه ويحبنى

قالت: أكاد أفقد إيمانى بكل شىء جميل فى الحياة.. لم أعد ارى فى الناس غير اشباح محنطة تحترف الكذب وتمارس السفه بكل الوانه واشكاله أكاد أفقد إيمانى بالحب وسط زمان جارح لم يعد يفرق بين العصافير التى تريد أن تعيش فى أمان بين جدران عش صغير وبين غربان تتسكع على أشلاء الآخرين.

أكاد أفقد إيمانى بالصدق أمام وجوه تغير أقنعتها كل لحظة فلا ارى أمامى غير هياكل من الشمع لا نبض فيها ولا إحساس.. أجلس فى غرفتى أحيانا لا أريد أن أرى أحدًا، ولا أريد أن يرانى

احد .. أنسى أوقات طعامى.. أشعر أن الطريق مظلم وطويل..
وفى كل لحظة أتصور نفسى وحيدة فى هذا السرداب المظلم الذى
لا أرى نهاية له.

قلت: لا أعرف تماما ما الذى حمل لك كل هذه الأحزان
كنت أراك دائما متفائلة.. وكانت ضحكتك البريئة تطوف بنا عبر
أحلام وردية كثيرة.. ما الذى حدث للوجه البرئ.. وماذا أصاب
قلبك الجميل هذا الطفل العاشق للحياة.

كيف تسللت إليك مشاعر الوحشة والألم بهذه الصورة
القاسية.. كيف حملت لك زوايا الأيام كل هذا الحزن.. أكاد
لا أصدق ما أسمع.. ليست هذه هى شجرتى العنيدة التى كانت
دائما تفوح بعطرها فى كل مكان.. ليست هذه هى سحابتى
الممطرة التى كانت تشعرنى دائما أن أجمل ما فى الحياة هو
العطاء.. ليست هذه اللؤلؤة الثمينة التى حافظت دائما على ضوئها
الساطع وسط الرمال والأمواج والأعشاب.. لست أنت التى عرفتك
وكنت فى أحيان كثيرة أستمد منك صلابتى وأحلامى وجنونى.

حزين أنا من أجل عصفورتى الشاردة. هذا الكون لا يساوى
نظرة حزن من عينيك الجميلتين.. هذه الحياة لا تساوى لحظة ألم
تسكن قلبك العاشق بكل ما هو رائع وجميل.

حزين أنا أن أسمع منك كل هذه المشاعر الدامية.. وأتساءل

ماذا حدث لك.. وما الأسباب التى تجعل هذا الصوت الضاحك الخجول مشحونا بكل هذا الألم.

أنا أختلف معك كثيرًا.

إذا بقيت فى المدينة شجرة وحيدة مثمرة فيجب أن تحافظ على نفسها قبل أن تطلب من الآخرين أن يحافظوا عليها.

وإذا بقى فى الأفق عصفور وحيد يغنى فيجب أن ينطلق فى سماء الكون حتى تتعلم منه العصافير الصغيرة قيمة الغناء .. وإذا حاصرت الرمال فى البحر لؤلؤة جميلة فيجب أن تتمسك بالحياة فسوف تأتى موجة عاتية وتلقى الرمال بعيدا ويعود الضوء مرة أخرى للؤلؤة الحزينة.

إذا وجدنا حولنا أشباحًا محنطة من البشر يكفى أن ننظر من بعيد وندرك أن هناك إنسانًا وحيدًا فى هذا الكون يحمل لنا من المشاعر ما يكفى آلاف المحبين والعشاق.

أعلم أن الطريق إليك صعب وبعيد.. وأن بينى وبين الشجرة الحزينة صحراء واسعة.. وأن العصفور يغنى فى مكانه.. وأنا أسمعه على البعد.. وأن اللؤلؤة تسكن مكانا بعيدًا فى أعماق البحر.. أعلم هذا كله.. ولكن إحساسنا بأننا معا رغم هذه الظروف يمكن أن يعطينا الكثير من الصبر والإرادة والرغبة فى الحياة.. تمنيت لو حملت لك أيامى ونثرتها يوما يوما فوق أوراقك

الخضراء.. تمنيت لو جعلت من عمرى شمعة تضىء الكون كله حتى اكتشف فى أى مكان يغنى عصفورى المسافر.. تمنيت لو حملت أحزانك بين يدى لكى تعود لك ابتسامتك الساحرة بكل براءتها وصدقها.

تمنيت أشياء كثيرة وأنا أعانق كلماتك الحزينة.. وقلت لك إذا كانت حولك وحشة الزمن وقسوة الحياة فتذكرى أن هناك إنسانًا واحدًا حمل فى قلبه مشاعر الدنيا ووضعها يوما بين يديك رغم قسوة هذا الزمان البخيل.

يكفى أن تجد إنسانًا يبادلك الحب ويغنيك عن كل البشر.

* * *

آه .. لو كنت معى

قـالت: أريد أن أخـالفك فى بعض أقـوالك .. أنت تقـول..
يكفى أن تجد إنسـانًا يحبك حتى لو كان فى آخر الكون.. وأنا أقول
ما قيمة أن أحب إنسانًا لا أجده بجانبى .. كلما رأيت شيئًا جميلاً
أو أحسست بإحساس جميل أجد نفسى أردد أغنية عبد الوهاب
وأقـول: آه لو كنت معى.. وهذه الآه هى التى تشقينا يا صديقى
دائما.. عندما تحب إنسانا تريد أن تتمنى معه أشياء وأشياء ومن
الظلم أن تعيش العمـر وكل مـا تتمناه أن تراه.. هل يمكن لك أن
تدرك حجم المسافة بين أن تحلم مع إنسان، وبين أن يكون الحلم
كله أن تراه.. إنه عذاب طويل للنفس أن تحب إنسانًا ولا تجده بين

يديك، الفراق والألم والوحشة مشاعر ثقيلة على النفس، ومن الظلم أن يعيش الإنسان حياته معها حتى ولو كان ذلك بسبب الحب.

أرجوك حاول أن ترى الصورة معى.. إنسان تحبه.. وتجده بجوارك وتعيش معه.. وإنسان آخر تحبه ولا تجده .. ولا تعيش معه.. ويفصل بينك وبينه آلاف الأميال .. والمثل يقول: «البعيد عن العين بعيد عن القلب، والقريب من العين قريب من القلب».

سوف تقول.. ربما كان القريب من العين بعيدًا عن القلب.. وأنا أقول مادمت أحب إنسانًا فهو قريب من قلبى .. والأجمل أن يكون قريباً منى ومن قلبى فى وقت واحد.

إن الحب بدون تواصل شىء من الانتحار.. وأنت تكتب كثيرا عن خيالات وأحلام شاعر.. وأرجوك أن تجرب الحقيقة يوما لأنها أجمل بكثير من كل خيالاتك.. أنا على يقين أن من تكتب لها هذا الكلام - إن كان قريبًا من الحقيقة - تتمنى لو أنك كتبت هذا الكلام وهى بجوارك.. سيكون الكلام أجمل وسيكون الإحساس أعمق.. إن نظرة بالعين أجمل من ألف رسالة.. وعندما تتصافح الأيادى وتتعانق الأشواق وتذوب الوحشة فإن ذلك يتجاوز بكثير كل كلمات الشعراء وخيالاتهم.

أنا معك أن الخيال إحساس رائع وجميل لكننا لا نستطيع

ان نعيش عليه.. لو انك خيرت امراة تحب رجلاً بعيداً لقالت لك اتمنى أن يكون قريباً.

حاول يا سيدى ان تحب ثمرة بين يديك.. إنها جميلة وناضرة على أغصان الشجرة البعيدة، ولكنها ستكون أجمل وأنت ترى تفاصيل كل جزء فيها وهى بين يديك.

إن الأيادى الجميلة والعيون الساحرة والشعر الناعم والوجه البشوش كل هذه الملامح ستكون أجمل ونحن نجلس أمامها، ومن الخطأ أن نكتفى بأن نناجيها على البعد.

انت يا سيدى تحب ان ترى أمواج البحر وانت تجلس وحيداً على الشاطيء .. وانا احب ان أصارع الموجة بكل جزء من كيانى حتى ولو وجدت نفسى فجأة وسط الرمال على الشاطيء.. ساعتها سوف أستريح قليلاً وأعود للأمواج مرة أخرى.. من جرب السباحة لا ترضيه ابداً رمال الشواطيء.. وأنا أشعر يا صديقى ولا تعتبر ذلك تطفلاً منى انك اكتفيت بصورة امرأة رحلت وجلست على الشاطيء ترسم صورتها على الرمال أحياناً وعلى الأمواج فى أحيان أخرى.. وأنت تظلم نفسك كثيرا.. اخرج من عباءة الماضى واترك نفسك قليلا للرياح والأمواج والعواصف لن تخسر شيئا إذا فشلت فى الامتحان تستطيع أن تعود إلى شواطئك سالما لترسم من جديد لنا وجه الحبيبة المسافرة.. وإذا

اكتشفت أن حياتك الجديدة أفضل فسوف تودع رمال الشواطئ وأنت أكثر شبابا وإقبالا على الحياة.. ويومها سوف تكتب لنا أشياء أجمل لأن أعظم الأشياء أن نعيش الحقيقة ونرسمها خيالاً.. ومن الظلم أن يكتفي شاعر مثلك بالخيال ويهرب من الحقيقة.. حاول أن تعيش الخيال حقيقة وأن ترى الحقيقة خيالا.. ولن تندم أبدا اترك نفسك قليلا للأمواج والعواصف حتى لا يشيخ قلبك قبل الأوان.

* * *

أشياء كثيرة لا نعرفها

قالت: ماذا تقول عن صورة إنسان لا أراه ولا يفارقني لحظة.. وصورة آخرين أراهم كل لحظة بعيني .. ولا يتجاوزون حدود هذه العين.

إنسان بعيد جدًا .. ورغم هذا يعيش معي.. وهناك من أعيش معهم ولا أراهم.. ما الذي يحكم إحساسنا بالناس.. هل هناك روابط أخرى غير ما تراه العين وما يشعر به القلب وما يحسه الجسد.. كيف نفسر احتياجنا لشخص دون الآخر.. ولماذا يكون هذا الشخص بالذات .. لماذا لا نشعر بنفس المشاعر مع إنسان آخر.

إن البعض يقول إن فى أجسام الناس نوعا من الـ
هناك ما يشبه المغناطيس الذى ينجذب لشخص ما فى ز

والبعض الآخر يقول إن هناك سرًا خفيًا يجـ
للبعض ونبتعد ونأنف من البعض الآخر.. وهل يمكن لـ
يعرف نفسه، هل يمكن أن يرصد مشاعره وتصرفاته.. أ
كله يتم بصورة خافية لن نعرف أسرارها.

كثيرا ما أحتار مع نفسى وأنا أراها تهفو إلى إنـ
وتسعى إلى كل مكان فيه.. تتبع أخباره، وتحاول أن تعرف
عنه. رغم أنه بعيد.

قلت: فى لغة المشاعر أشياء نعرفها.. وأشياء
نعرفها.. والذى نعرفه هو ذلك الانطباع السريع الذى يتركـ
ما داخلنا.. بريق عينيه.. صفاء وجهه.. ثقافته وفكره.
يمثل خليطا بين ما نراه.. وما لانراه.. ولا شك أن هذا ا
الأول يعتبر شيئا مهما فى مدى تقبلنا للشخص الآخر..
أن أعرف نفسى وأنا أتحدث مع شخص ما إذا كنت قد ا
له أو نفرت منه.. أو رفضته تماما.. وأستطيع أيضا أ
بنفسى إذا وجدت أننى مندفع نحوه بلا أسباب أعرفها..
دنيا الأصدقاء أحيانا أجد أننى أرتاح نفسيا مع صديق ما
همومى دون الآخرين من الأصدقاء.. وهذه الأمور لا يـ

تفسير ثابت غير أن القلب يستريح لإنسان ما ولا يستريح مع غيره.. قد تجد المرأة رجلا فيه كل المواصفات الطيبة شكلا ومظهرًا وأخلاقا وأصلاً ونسبا.. ولكنها تشعر أنه بعيد عنها.. وتحاول أن تجد عادة سببا واضحا .. ولكننا نقول إنه الحب.

وإذا كانت فى الحب أسباب ظاهرة فهناك أيضا أسباب خفية.. إذا كان من السهل أن تحدد لون العيون ولون الشعر والسمات والملامح فمن الصعب جدًا أن تقترب من الروح والطباع والسلوك وما خفى منها.

إننا فى البداية نحب الوجه والملامح، ولكن ذلك لا يكفى إنه يمثل اللحظة الأولى التى نصافح فيها الطرف الآخر، أما بقية الصورة فنحن لا نراها بعيوننا ولكننا نحسها بقلوبنا، وهذا هو ما يسمى الإحساس الأعمق، أن تنجذب بقلوبنا، وهذا هو ما يسمى الإحساس الأعمق، أن تنجذب لشخص وأنت لا تعرف فى لحظتها أسباب ذلك.. وقد يحدث أحيانا أن تعجبك ملامح إنسان، وعندما تقترب منه أكثر يتوارى جمال الملامح وتكتشف فيه أشياء أخرى ويكون الهروب الأكبر.

من أجل هذا يبقى فى الحب سر غامض لا نعرف أسبابه ولا نستطيع أن نصل إلى أعماقه.. وهذا ما يفسر لنا مشاعرنا حينما تتصارع فترى قلبك يعيش مع إنسان بعيد، بينما الجسد

يعيش مع شخص آخر، وهذا الانشطار يمثل أعمق أنواع العذاب النفسي أن تملك مالاتريد، وأن تشقى بمن تريد.. أن ترى البعيد ولا ترى القريب أن تسكنك امرأة هاربة .. وتهرب من عشرات مقيمات.. أن تسكب عمرك قطرة قطرة.. في أرض لا تريدها بينما تبعدك آلاف الأميال عن أرض سكنت فيها وسكنت فيك.. ما أصعب أن تجد ما لا تريد.. وألا تجد ما تريد.

* * *

ثمن الحب

قالت: ما ثمن الحب؟ وكيف يستطيع الإنسان أن يقدر المشاعر؟.. هل نقدرها بالمال، أم بدرجة السعادة، أم بدرجة الإحساس بين الطرفين؟

البعض يرى أن ثمن الحب بالمال باهظ جدًا.. وأن ثمنه بدرجة السعادة يرتبط أساسًا بمدى التفاهم والانسجام.. أما درجة الإحساس فهى سر لا يعرفه أحد إلا الإنسان بينه وبين نفسه.

قلت: من الخطأ أن نقدر قيمة شيء بشيء آخر.. قد يكون ذلك سهلاً فى العلاقات التجارية أو لغة المصالح بين الناس.. وفى

الماضى وقبل اختراع النقود كان الناس يتبادلون الأشياء سلعة بسلعة فكان الإنسان يأخذ القمح ويعطى الفاكهة أو العكس.. وهذا جائز فى لغة المبادلات المادية، أما فى لغة المشاعر فمن الصعب جدًا أن تعطى مالاً لتأخذ حبًا.. أو تعطى حبًا مقابل أى شىء مهما كانت قيمته.. المشاعر تقابلها مشاعر مثلها.. والحب لا يقابله إلا حب مثله.. ولكن شراء العواطف أو بيعها خسارة للطرفين.

ولا يوجد شىء فى الدنيا يمنحك السعادة أكثر من لحظة حب صادقة.. قد تحتويك أجمل أماكن الدنيا، ولكنك تفتقد فيها من تحب ولا تساوى عندك أى شىء.

والتفاهم والانسجام لا تمنحه لنا الأماكن ولا الأموال، ولكننا نجده مع إنسان يشاركنا لحظة صدق دون كل البشر.. تستطيع أن تشترى بمالك أى شىء، ولكنك لا تستطيع أن تشترى حب إنسان آخرَ بكل أموال الدنيا.

وعطاء الحب لا يقابله إلا عطاء مثله.. فإذا كانت المعاملات بين الناس لها أكثر من طريق فإن لغة المشاعر هى اللغة الوحيدة التى تتحدثها القلوب.

ولا يستطيع الإنسان أن يكشف أعماق الحب عند طرف آخر.. فالحب أعمق أسرارنا وربما امتدت جذوره فى أعماقنا ونحن لا نعرف مداها.. ولهذا نستطيع أن نترجم عمق المشاعر من

خلال السلوك.. وهو المقياس الوحيد لإدراك مدى إحساسنا بالحب وتمسكنا به.

وحينما يترك الحب مناطق الكلام والهيام ويدخل منطقة السلوك يصبح أكثر نضجًا وعمقًا .. إنه يتحول من المجردات إلى واقع ملموس فى حياتنا وتصرفاتنا.

ويتصور الإنسان أحيانًا أنه قادر على أن يشترى مشاعر الآخرين، والإحساس الحقيقى لا يقبل التعامل إلا بإحساس آخر ولا يقبل أية لغة أخرى غير لغة المشاعر.

وأمام ذلك كله يصبح الحديث عن ثمن الحب حديثًا من الصعب أن يصدر أحد فيه حكمًا قاطعًا.

إذا وضعنا الحب أمام مقياس المال.. فإن أموال الدنيا لا تشترى لحظة صدق واحدة ولا تعوضنا عن لحظة ألم واحدة.

وإذا وضعنا الحب أمام مقياس السعادة.. فإن طعم السعادة فى الحب منطقة خاصة جداً لا يدركها إلا إنسان عاشها وذاق حلاوتها.

وإذا وضعنا أمام الحب درجة إحساسنا به.. أو إحساس الآخرين بنا فإن هذا هو المقياس الوحيد الذى نستطيع أن ندرك به قيمة الحب فى حياتنا.

وفى زمـاننا الـغـريـب أصـبـح لكل شىء ثمن.. وتصـور البـعض أن الحب يمكن أن يدخل أسـواق المزايدات والأرقـام.. ويسـتطيع الإنسـان أن يضـارب فى كل شـىء إلا أسـواق الحب فـهى لا تعـرف المضـاربة لأن لها لغة واحدة وعملة واحدة هى المشاعر .. وحينما يخسر الإنسان فيها فهو يخسر أغلى ما يملك.

* * *

لقاء على غير موعد ..

أجمل الأشياء تلك التى تأتينا على غير موعد.. إنها تشبه قطرات المياه التى تجود بها السماء على شجرة وحيدة حاصرها العطش واستباح فروعها الجفاف.

ولقد كانت أشياؤنا الجميلة تجىء على غير موعد.. بل إن المواعيد فى أحيان كثيرة قطعت كثيرا من الجسور ودمرت الكثير من الأحلام.. هناك أحلام تسربت من بين أيدينا فى لحظة تحددت فيها كل الأشياء، ولكن القدر تدخل فى اللحظات الأخيرة وأنهى كل شىء. وهناك أشياء كثيرة رتبناها معا.. وفى اللحظة الأخرى توقف كل شىء.

ولهذا أحببت معك تلك الأشياء التى خرجت على كل الظروف وتجاوزت كل التوقعات.. وكانت صدفة أكثر من جميلة، أصعب الأشياء أن تحاول رسم صورة لقاء ثم يصبح اللقاء مستحيلا.. أو ربما جاء اللقاء وقد خفتت ملامح الصورة وضاع بريقها.

إننا أحيانا نشتاق لحظة ما.. فى زمن ما.. ونسعد بها إذا جاءت فى موعدها.. وتشقينا العمر كله إذا تخلت عنا فى لحظة احتياج.

وإذا كانت هناك أشياء لا تجىء فى مواعيدها فإن هناك أشياء أخرى تجىء على غير موعد.

ولنا أن نتصور الربيع وقد جاء بلا أوراق خضراء.. وبلا طيور مغردة.. وبلا زهور تتمايل فى السماء. وأن نتصور الخريف وقد ظهرت فيه أوراق قليلة متناثرة هنا وهناك.

فى الحالة الأولى الربيع خاننا ولم يأت فى موعده وترك لنا الحزن والوحشة.

وفى الحالة الثانية جاء الخريف ومعه مفاجأة جميلة. وما يحدث مع الطبيعة يحدث مع الحب.. فى بعض الأحيان يأتيك من تحب.. بما لا تحب.. وربما حمل لك مفاجأة لا تتوقعها.

ولهذا فإن الصدفة من الجوانب الجميلة والخفية فى حياة الإنسان.

أجمل اللقاء لقاء صنعته صدفة.

وأجمل المشاعر .. تحملها الصدفة.

قد يحاول الإنسان سنوات طويلة أن يجد نصفه الآخر.. ويدور فى كل بلاد الله شرقا وغربا فى رحلة بحث مضنية ولا يجد هذا الشخص.

وفجأة تنطلق المصابيح تعلن ميلاد لحظة جديدة خارج حدود الزمن والبشر.. والأشياء .. وربما كانت هذه اللحظة وليدة صدفة لا يدرك الإنسان لها حدودا فليست لها مقدمات.. وليست لها حدود. والإنسان أحيانا يرسم كل شيء فى حياته .. أو يحاول ذلك على الأقل، وتأتى صدفة واحدة تغير كل شيء.. وتخرج على كل الحسابات.

ولهذا أشعر دائما أننى من عشاق الصدفة .. فأجمل الأشياء التى اجتاحت حياتى جاءت على غير موعد والتقينا بالصدفة.. ولأنك أجمل هذه الصدف.. كنت دائما أبحث عن تلك اللحظة التى تجمعنا.. حتى ولو جاءت على غير موعد. التقينا منذ سنوات صدفة.. وجمعتنا أقدارنا.. صدفة.. وتحايلنا على الزمن والظروف بالصدفة.. ومازلنا نمضى فى الطريق وفى داخل كل منا إحساس بأن لقاءنا قدر حتى ولو جاء بالصدفة.

* * *

أجمل الأشياء .. مازالت بعيدة

لم يعد البعيد بعيدًا .. ولم يعد القريب قريبا .. تداخلت الصور والألوان والأيام والبشر .. وأصبح من الصعب جدًا أن تذكر وجهًا .. أو يوما .. أو مكانا.

ولأن الأيام ازدحمت .. والوجوه تداخلت تحاول وسط هذا كله أن تبقى فى داخلك صورة .. أو تتذكر وجها .. أو تحافظ على ما بقى لك من ذكريات.

إن إيقاع الحياة السريع المتلاحق أفقد الإنسان تواصله مع الحياة بشرًا وزمنا وأحداثا .. لأنك فى كل يوم تشاهد عشرات الوجوه .. وتتابع عشرات الأحداث .. وتسمع عشرات القصص فإنك

تلقى رأسك بعد هذا التكدس الرهيب لكى تستريح ساعة.. وربما نسيت كل هذه الأشياء.

وإذا حاولت أن تراجع أجندة يومك سوف تكتشف حقيقة عمرك ولون أيامك .. إنك تصحو على الجرائد.. وهى محطات وزوايا كثيرة وتحاول أن تلقى رأسك لتستريح دقيقة مع كاتبك المفضل.. وتطارد عينيك العناوين الساخنة والكاذبة والمزيفة.. ولا تجد لحظة صدق مع سطر واحد.. إن الأخبار مكررة.. سنوات طويلة والخبر واحد.. الدبابات فوق ضحايا البوسنة.. الشيشان الصامدون.. أفغانستان تحترق.. انفجارات فى مدينة النور.. القتلى فى شوارع الجزائر.. الإيدز يحصد وسط أفريقيا.. الجفاف يهدد نصف سكان العالم..السلام الذى لن يجىء رغم أننا مازلنا نحلم به.

وتفتح التليفزيون وتشاهد هذه الأخبار بالصوت والصورة والألوان.. وتبدأ أحاديث التليفونات.. ساعات طويلة فى الكلام.. وكلها حول الأحداث والأحوال والأمراض ومن مات ومن عاش، ومن قتل نفسه.

الأولاد فى المدارس ونظام التعليم الفاسد ..والدروس الخصوصية.. وقضايا الرشوة والفساد.. وضحايا توظيف الأموال والزوج الذى أكل رأس زوجته.. والأم التى قتلت ابنها والابن الذى أحرق والده.

وبعد ذلك كله مشاكل البيت.. والمصروف.. والالتزامات.. والخوف من المستقبل.

وعندما تلقى رأسك لتنام تحاول وسط هذا الركام أن تجد نفسك فى لحظة .. أو موقف.. أو ذكرى.. وتكتشف أن الأحداث سرقت منك يوما.. وأنك رجعت آخر اليوم ربما معك الأموال والمكاسب والملاقات والأخبار والناس من كل لون.. ولكنك لم تجد نفسك وسط هذا كله.. لقد تناثرت كالشظايا فوق موائد الغير. أكلوا منك حتى شبعوا .. وبقيت وحدك عاريا فوق الموائد بجسمك الشاحب.. ووجهك الهزيل.

وهذا هو إيقاع العصر والزمن الذى نعيش فيه.. يتصور الإنسان أنه أخذ كل شىء.. وحينما يحاول أن ينام يطارده صقيع الوحشة وبرودة الأيام، يكشف أن ما بين يديه مجموعة أوهام اشتراها وخدع نفسه بها.. وصدقها. وسط هذا كله.. يطل وجه فى لحظة صمت تتذكر فيه إنسانا عشت معه لحظة صدق بدون زيف أو خداع أو مجاملة.. ربما كان بعيدًا عنك.. ربما فرقت بينكما أوطان أو أزمان وظروف حياة.. لكنك فى لحظة ما تشعر أنه معك وأنه قريب منك رغم كل المسافات.. وكل الظروف .. وتشعر ساعتها أنك تشترى الوهم وتبيع الحقيقة.. وتجرى وراء الرخيص.. وأنت تدرك أنه رخيص.. بينما تبقى أجمل الأشياء وأغلاها عندك فى مكان بعيد تعرفه، ولكنك لا تملك القدرة على الوصول إليه.

اجمل الأشياء .. مازالت بعيدة.

كل عام.. وأنتِ حبيبتى..

الأيام تجمع أوراقها وترحل.. وها هو العام يطوى حقائب أسفاره ويمضى فى رحلة أبدية.. بينما يطل فى الأفق عام جديد.

إذا كان هناك عام حمل ذكرياته ومضى.. فهناك عام آخر نستقبل معه أحلامًا جديدة.

ولن ننسى ذكريات عامنا الذى رحل.

فى هذا العام عشنا لحظات توحدنا فيها رغم انشطارنا فى بلاد الله شرقًا وغربًا وفى كل اتجاه استطعنا أن نلملم شظايانا المتناثرة فى كل مكان. الأوراق المبعثرة صارت كتابًا.. والنغمات الحائرة صارت لحنًا.. والجدران المحطمة صارت قصرًا..

والأحلام القليلة منحتنا القدرة على أن نواجه الحياة. جمعنا كل هذه الأشياء وصنعنا منها عالماً جديدًا.

فى هذا العام تجسدت أحلامنا ورأيناها تتجاوز الحدود والظروف والألم. كان كل واحد منا يحاول أن يحلق بجناح واحد فيسقط، وحينما حلقنا معًا استطعنا أن نطير رغم أن كل واحد فينا يحمل جناحًا مكسورًا.. واكتشفنا أننا استعدنا قدرتنا على الطيران رغم أننا تصورنا يومًا أننا لن نعود للسماء مرة أخرى.

رسمنا أحلامًا صغيرة.

إننا لا نريد شيئًا من الآخرين.. ولكننا نريد أنفسنا.. لا نحمل كرهًا ولا حقدًا لأننا لا نعرف كيف نكره ولم نتعلم كيف نحقد.. ولكننا اخترنا الحب طريقًا.

حاولنا أن نجد أنفسنا فى أشياء صغيرة.

فى لحظة تتجاوز حدود الزمن والناس.

وفى حلم يتجاوز حدود الأشياء.

وفى غد يمكن أن يمنحنا الأمان.

وفى ماضٍ يمكن أن يعلمنا الدرس.

وفى اختيار ننقذ به أنفسنا قبل أن يأتى الطوفان.

وأدركنا ربما بحكم الزمن والتجربة أن ما يسعدنا قليل..

وانه ممكن، وأن مـا تصـورناه السـعـادة يومًا... كـان حلمًا زائفًا.. وأملاً كاذبًا.

أدركنا أن حولنا وجوهًا كثيرة ولكن فى النهاية نحن نحتاج لوجه وحيد يؤنسنا ويسعدنا ويحتوينا.

تعلمنا أننا قد نملك أشياء كثيرة.. ولكن ربما تغنينا أشياء قليلة.

فى هذا العام اقتربنا من أنفسنا أكثر.. لقد اكتشفنا أن هذا الضجيج الكاذب لا يغنى عن لحظة صفاء مع النفس يشعر فيها الإنسان أنه أكبر من كل الإغراءات.. وأسمى من كل هذا الزيف.. وفى هذا العام أحببتك أكثر.

ابتعدنا أحيانا واكتشفنا أن البعد يزيدنا شوقًا.. وأن لحظات البعد علمتنا كيف نحافظ على المشاعر الجميلة التى جمعت بيننا.. وأن الأيام زادتنا تماسكًا.. وأن البعد قربنا أكثر وأكثر.

وحينما كنا نقترب كنا نشعر بأن الزمن يحاول أن يكون كريمًا معنا، وأن الحياة مازالت تعلمنا.. وأدركنا يومها أن مابيننا يستحق أن نضحى من أجله وأن نتحمل المشاق فى سبيله. فى هذا العام أحببتك أكثر.

إن المشاعر أمام قسوة الظروف.. والألم.. والمعاناة يمكن أن تتراجع أو تتغير أو تصيبها موجات اليأس.. ولكننى أكتشف فى

هذا العام أن الظروف زادتنا إصرارًا .. وأن البعد زادنا قدرة .. وأن اللحظات التى توحدنا فيها كانت تغنينا عن كل سنوات العمر الذى تسرب من بين أيدينا وضاع.

سوف أظل مدينًا لهذا العام الذى رحل.. لقد حلمنا فيه كثيرا وحقق بعض أحلامنا.. وتناثرنا فيه.. وانشطرنا.. ثم تلاقينا وتوحدنا.. وتجاوزنا محنة الظروف.

كان عامًا غريبًا فى كل شىء، فى مفاجآته.. وتقلباته.. رأيناه يتنكر لنا حينًا.. ويعانقنا أحيانًا.. ويشقينا حينًا.. ويسعدنا أحياناً.. أخذ منا وأعطانا.. ولكن أجمل ما كان فيه أننى أودعه الآن وأنا أشعر أننى أحبك أكثر.

الأيام التى تمنحنا الحب لا يمكن لنا أن ننساها.

كل عام وانتِ حبيبتى.

* * *

أعطنى زمنا ومكانا..

مع من أحب

دار بيننا حوار طويل فى ليلة من ليالى العمر الجميل.

قالت: من يسبق الآخر فى المكانة.. الزمان.. أم الإنسان.. أم المكان؟

قلت: من الصعب جداً وضع أولويات لهذه المعادلة.. لأن جمالها واتساقها الحقيقى أن تجتمع كلها فى نقطة التقاء واحدة.

فالزمن لا يعنى شيئا بدون البشر فليس أكثر من وقت عابر يتساوى مع كل الأوقات.. ونقطة التميز الوحيدة فى الزمن أن يجمعنا بأشياء نحبها، فما بالك إذا كان هذا الشىء إنساناً نحمل

له المشاعر وتربطنا به علاقات ود ومحبة.. إذا انتزعنا الإنسان من المعادلة بقى الزمن.. وهو لا يعنى شيئا بدون الإنسان .. أى بدون من نحب.

والأماكن قد تتساوى فى أهميتها عندنا، ولكن الذى يميز مكانا عن آخر.. هو لحظة نجتمع فيها مع من نحب.. ومعنى هذا أن المكان وأهميته يرتبط بالزمان .. والإنسان.. وإذا أخذنا المكان مجردًا عن الزمن الذى عشنا فيه، والبشر الذين اجتمعنا بهم فى هذا المكان لا يبقى شىء غير مساحة من الأرض تتشابه مع أماكن كثيرة رأيناها وسوف نراها فى رحلتنا مع الحياة.

ولهذا أقول.. إن هذه الثلاثية معادلة واحدة لا ينبغى أن نناقشها كل طرف على حدة فالأماكن تكتسب مكانة خاصة مع من نحب .. وفى زمن ما.

وإذا سقط الزمن.. خسرت المعادلة أحد أجزائها وإذا سقط الإنسان .. لايبقى شىء على الإطلاق.. إذا وقف المكان وحيدًا بعيدًا عن كل هذا فهو لا يساوى أى شىء.

من أجل هذا يبقى أن الإنسان هو الأساس.. لأن الأماكن تستمد قيمتها بالناس وليس بغيرهم.. ماذا يساوى قصر كبير لا نجد السعادة فيه مع من نحب.. وماذا تساوى فنادق الدنيا

الفاخرة ونحن فيها غرباء؟ وماذا يساوى أى مكان فى الدنيا لا تربطنا به علاقة ما.. فى زمن ما؟

وكذلك الزمن.. يستمد أهميته من البشر الذين جمعنا بهم هذا الزمن.. فالنوم الطويل.. زمن.. والسفر الطويل زمن.. والطعام الكثير زمن.. ولكن هل يتساوى هذا الزمن مع لحظة صدق نعيشها مع من نحب؟ هل تتساوى ساعات النوم الطويلة التى نقضى معها أيامًا وأيامًا، مع لحظة شوق طالت؟

هل يتساوى مكان كانت لنا فيه ذكرى، مع أماكن أخرى لا نذكر من ملامحها شيئًا؟

إن الأماكن التى جمعتنا بها ذكرى لا تغيب أبدًا عن خيالنا، وتبقى محفورة فى أعماقنا بكل تفاصيلها.. نتذكر المائدة التى جلسنا عليها.. والأكواب التى شربنا فيها.. والموسيقى التى أطربتنا.. ولون الجدران.. وبرودة الهواء.. وسخونة المشاعر.. كل هذه التفاصيل الصغيرة لا تضيع منا أبدًا رغم عشرات الوجوه التى نلقاها كل يوم.

ولكن الشىء المؤلم فى كل هذه المعادلة أننا لا نستطيع أبدًا أن نسترجع لحظة زمان عبرت.. قد نرى شبيها لها.. وقد نحيا بعض جوانبها.. ولكننا لا نملك أن نستردها كاملة.. أعطنى المعادلة كاملة غير منقوصة.. مكان.. وزمان.. ولكن مع من أحب.

فى الحب تتوحد كل اللغات

فى الحب تتوحد لغة الحواس عند الإنسان كلامًا.. وسمعًا.ونظرًا.. ومن الممكن جدًا أن تكذب هذه الحواس.. من الممكن أن يكذب اللسان.. قولا.. وأن تكذب الأذن سمعاً.. ولكن العين هى المنطقة الوحيدة التى يمكن للإنسان أن يكشف بسهولة جوانب الصدق والكذب فيما تقول.

وتختلف المشاعر الإنسانية فى درجات تأثيرها على حواس الإنسان.. ولهذا يمكن أن تكون لكل حاسة لغتها الخاصة.. هناك لغة الجسد .. وهناك لغة للقلب.. وهناك لغة للعيون.. وهناك أيضا لغة الكلام وما أكثر الكذب فيها.

وإذا كانت لغة الجسد تمارس الكذب أمام الرغبة فإن لغة

القلب لا تعرف الكذب، وكذلك لغة العيون. والحب هو الإحساس القادر على توحيد لغات الإنسان جميعها فى سياق واحد ابتداء بلغة الجسد وانتهاء بلغة العيون.

إن الإنسان قد يشعر بالكراهية لشخص ما ولا ينعكس ذلك على حواسه كلامًا أو نظرًا أو سلوكًا.. يستطيع الإنسان أن يخفى مشاعر الكراهية خلف حواسه.. بحيث لا يبدو منها شىء على السطح.. بل إن القاتل يمشى فى جنازة القتيل ولا يظهر عليه شىء على الإطلاق.

وإذا كره القلب تخاذل الجسد.. وبمعنى آخر إن إحساس الإنسان بالكراهية تجاه شخص ما يمكن أن يوقف الحواس الأخرى.. حينما ينطلق إحساس الكراهية من القلب يصعب على الحواس الأخرى أن تفعل شيئًا آخر غير أن تكره.. حتى لو حاولت إظهار مشاعر أخرى.. إن الكراهية تفقد الحواس قدرتها على التمييز بين الأشياء فنرى الجمال قبحًا.. ونسمع المديح سبابا.. ونقول فى الإنسان ما ليس فيه.. ولكننا فى الحب نوحد المشاعر بالحواس.. وتصبح لها لغة واحدة وإن اختلفت تنويعاتها.

فإذا كان من السهل أن يمشى القاتل فى جنازة القتيل فمن الصعب أن تخفى العيون مشاعر الحب فيها.. لأنها غير قادرة على أن تفعل ذلك.

لا يستطيع المحب أن يكون قاسيًا حتى لو حاول ذلك.. ولا تستطيع العيون أن تنفى مشاعر الحب.. حتى لو حاولت ذلك.

لا يستطيع الجسد أن يخفى مشاعره فى لحظة حب صادقة.. وحينما يحب الإنسان يدرك أنه وصل إلى درجة التوحد بينه وبين نفسه.. توحدت مشاعره مع حواسه باختلاف لغاتها.. ثم يصل إلى درجة التوحد مع من يحب.. ويصبح الانشطار نوعا من الجنون.

وقد يرى البعض أن هذه المشاعر لا وجود لها الآن.. لقد أصبح الكذب أكثر السلع رواجًا فى حياة الإنسان فى هذا العصر.. إن مشاعره تكذب. وحواسه تعرف ألف نوع من أنواع الزيف.. وهو يمارس ذلك كله فى حياته اليومية.

ولكن الشيء الغريب أن هذا الإنسان الذى اعتاد الكذب فى كل شيء يمكن أن يغيره الحب تمامًا إلى إنسان آخر.. لأنه لا يستطيع إلا أن يكون صادقًا حينما يحب.

ومثل هذه المشاعر التى تبدو غريبة يمكن أن نراها بين البسطاء من الناس الذين اختاروا لغة المشاعر واكتفوا بها عن مغريات كثيرة فى الحياة.

إن للحب إشعاعًا خاصًا يضيء داخل الإنسان ويصعب مع هذا الضوء أن يكون للخفافيش مكان فيه.. ولكن بعض الناس فقدوا القدرة على أن يعيشوا لحظة حب صادقة، ولهذا يبدو هذا الكلام غريبًا عليهم.

حوار مع عام سافر وحيداً ..

من اصعب الأشياء على الإنسان أن يجد نفسه محاصرًا بعشرات الوجوه حوله.. وليس بينهم ذلك الوجه الذى يريد أن يراه.. وفى تلك اللحظات الفاصلة بين الأيام يتجه الإنسان ببصره ويدور .. يحاول أن يستكشف ملامح الناس ولون الوجوه.. ويشعر أن كل هذا الضجيج لا يعنى شيئا بالنسبة له.. إن ما يريده بعيد.. وكل هذا الصخب سوف يطوى أشياءه ويمضى ربما بعد دقائق.. وربما بعد ساعات.

كل عام يحتفل الناس عادة برحيل عام واستقبال عام جديد وتدور الرؤوس.. وتتساقط الأقنعة.. ويتهاوى أمام الجميع عام يحمل أشلاءه ويمضى.

وأنا لا أحب ضجيج الناس.. ولا أحب أن أجد نفسى محاصرًا بهذا الصخب المجنون.. أحب دائما أن أودع الأشياء على طريقتى ولأننى إنسان واقعى جدًا وخيالى جدًا فأنا أودع العام الراحل.. أحاول أن أراجع صفحات هذا العام.. وأستعرض جوانب القبح فيه وجوانب الجمال.. ولا يبهرنى أبدًا بريق عام قادم بل أحاول أن أخفف أحزان عام سيرحل.. إن من حقه علينا أن نجلس معه بعض الوقت حتى لا يجد الجميع وقد انفضوا من حوله وهو يعيش أحزان ساعاته الأخيرة.

كان العام يقف على محطة القطار.. ووجدت حوله أعدادًا قليلة من الناس جاءت لتودعه .. بينما لاح على الرصيف الآخر زحام شديد.. كان الجميع يتجهون فى شبه مظاهرة لاستقبال العام الجديد.. وبدأت أعداد الناس حولى تقل.. وقبل لحظات من مجئ القطار لم يكن مع العام المسافر أحد غيرى.. انفض الجميع من حوله.. وبقيت وحدى أحاول أن أستعيد معه ذكرياتنا معا.. قلت له.. لقد أسعدتنى فى يوم كذا وكذا.. وكنت لطيفا معى فى أكثر من مناسبة.. وجمعتنى مع من أحب فى بلاد كذا وكذا.. وبخلت علينا ببعض اللحظات ذات يوم.

كان العام سعيدًا وهو يجد بجانبه إنسانًا وحيدًا جلس يتحدث معه فى اللحظات الأخيرة.. كانت فى يده حقيبة ضخمة حاولت أن أساعده فى حملها ولكنه رفض.. وقال لى: هذه حقيبة

ثقيلة جدًا لا تستطيع أنت أو غيرك أن تحملها.. إنها أخطاء الناس في عام واحد فما بالك بخطايا سنوات العمر الطويل.

في هذه الحقيبة كُتَّاب باعوا ضمائرهم.. وساسة باعوا شعوبهم .. وأمهات قتلن أبناءهن.. وأبناء قتلوا آباءهم.. وفي هذه الحقيبة أحبة خانوا.. ورفاق باعوا.. ووجوه تنكرت.. ونفوس تجبرت.. وفي هذه الحقيبة أيضا.. كُتَّاب ماتوا من أجل كلمة حق.. وساسة خافوا الله في أوطانهم.. وأمهات أضعن العمر من أجل لحظة صدق.. وأبناء وضعوا آباءهم وأمهاتهم فوق الرؤوس وفي حدقات العيون.. وفي هذه الحقيبة أيضا وجوه وفيت.. ونفوس ضيعت.. ورفاق أخلصوا.. وأحبة صانوا العهود.

هذه حصيلة اثنى عشرا شهرًا.. فما بالك بحصيلة العمر يا سيدي.. سألت العام وهو يرحل: وبماذا تنصح الناس قبل أن تمضي.. قال: الويل لمن نام ظالما.. والويل أيضا لمن نام مظلوما.. فإذا كنت ترفض أن تكون ظالما فمن الأفضل أيضا ألا تكون مظلوما.. والصدق أفضل حتى لو جاء بالخسارة.. والكذب والزيف والدجل سلعة النفوس الضعيفة.. ومن يغير لونه يمكن أن يغير لسانه.. ومن يغير لسانه يمكن أن يغير دينه.. ومن يغير دينه فلا أمان له.

ومن استهان بنفسه.. استهان الآخرون به.. ومن رضى الذل

مرة.. فسوف يرضاه بعد ذلك ألف مرة.. والشعوب مثل الأشجار أحيانًا تموت واقفة وترفض أن تميل.. وأحيانًا ترقص أمام كل نسمة أو تميل أم كل عاصفة.. وآفة الإنسان أن يتعلم الرقص على الحبال.. لأن نهاية الرقص عادة أن يسقط على رقبته.

كان الناس يتجمعون على الرصيف المقابل بالآلاف يستقبلون العام الجديد بينما وقفت وحدى على الرصيف أودع العام المسافر.. قال ضاحكًا: أرأيت هؤلاء المنافقين الذين جاءوا لاستقبال العام الجديد.. سوف تراهم فى هذا المكان بعد اثنى عشر شهرًا وقد جاءوا بنفس الهتافات يستقبلون عامًا آخر.. ولن يجد هذا القادم المغرور أحدًا من هؤلاء يودعه.

إن طباع الناس تتشابه عادة فى استقبال الأعوام.. واستقبال الحكام.. وأيضا يتشابهون فى وداعهم.

لكل عام جديد فرحة.. ولكل حاكم جديد زفة.. وكما ترى لا أجد من يودعنى الآن.. وكذلك الحكام لا يجدون عادة من يسأل عنهم إذا غرب عنهم السلطان.

يا صديقى آفة هذا الزمان النفاق.. والنسيان.. لا يختلف فى ذلك نسيان الأيام.. ونفاق الحكام.. وماتراه الآن أمامك يعكس صورة زمانكم القبيح.. لم أجد أحدًا يودعنى وهؤلاء جميعًا أكلوا

من يدى وشربوا من كاسى واسعدتهم بعطائى.. وارشدتهم ببصيرتى.. ولا اجد منهم شخصًا يودعنى.

يا صديقى أنا غير نادم على فراق أحد منكم .. حتى أنت لأنك تتساءل كثيرًا.. واسئلتك تزعجنى ..

سلام عليكم.

* * *

أنا معك أملك الدنيا

قالت لا أريد قصة حب بلا نهاية .. وأشعر أن طريقنا لن يصل إلى شيء .

قلت : أعظم الأشياء فى الدنيا بلا بداية .. وبلا نهاية .. الأرض تحتنا بلا نهاية .. والسماء فوقنا بلا نهاية .. وأقل الأشياء قيمة فى الحياة هى تلك التى تنحصر بين البداية والنهاية بما فى ذلك عمر الإنسان نفسه.

قالت : ولكننى أحبك ولا أراك .. وتحبنى ولا ترانى .. ولا نملك من أمرنا شيئا.

قلت: أعظم الأشياء فى حياتنا قد لا نراها ولكنها تسكننا..

وأنا أراك وإن كنت بعيدة .. وأنا أحبك وإن كنت أدرك أنك حلمى المستحيل .. وأشعر بك فى كل لحظة وأنت تنامين أو تقرئين أو تسافرين .. دائما أنت معى.

قالت : ومالنا نحن وهذا العذاب .. كيف نقضى عمرنا نطارد ذلك الحلم المستحيل .. يوما من الأيام سوف تشعر أنت بالملل .. وربما أنا أيضا.

قلت : هل اخترنا بدايتنا .. كان حولك آلاف الرجال غيرى.. وكان بجوارى آلاف النساء غيرك.. لا أنا اخترت .. ولا أنت أيضا .. ولا أنا قادر على أن أصنع النهاية .. ولا أنت أيضا .. إن من يقدر على فعل الشىء لا يستأذن أحدا فيه .. ولو كنت أنا قادر ما فكرت فى الاعتذار لك.

قالت : ربما كانت المشاعر بيننا هى السبب .. لقد تركناها تسيطر علينا .. وتتسلل داخلنا .. ولو أننا حاولنا أن نطفئ الحريق ما اتسعت نيرانه .. ولو أننا حاولنا أن نخرس أصوات الحنين بيننا ما تحكمت فينا .. ولو أنك حاولت أن تنسى .. وتركتنى أفعل ذلك لمات كل شىء بيننا وتحول الآن إلى ذكرى.

إن عذاب يوم أو يومين أو شهر أو شهرين أفضل عندى من مشاعر الخوف التى تطاردنى فى كل لحظة .. إننى أفضل الجراحة عن المسكنات .. وأفضل أن أقطع جذور الأشياء قبل أن تغوص فى أعماقى .. وليتنا افترقنا من البداية.

قلت : مازلت تصرين على أننا اخترنا أن نحب .. وأنا أقول إن الحب هو الذى اختارنا .. ولو أن الأمر كان اختيارا لذهبت أنا إلى امرأة أخرى .. وذهبت أنت إلى رجل آخر . لو كان الحب اختيارا لفتحنا أبوابنا كل ساعة لضيف جديد .. ولكن الحب الحقيقى قدر لا اختيار لنا فيه .. إننا لا نختار من نحب .. والدليل على ذلك أن يحب الإنسان شخصا بعيدا ولا يحب آخر بجواره.. وأن يعانى العذاب مع من يحب ، وهناك من تتوافر لديه كل سبل الراحة.

كيف أسعى للبعيد .. وهناك الأقرب منه .. وكيف أحن للمستحيل وبين يدى الممكن .. وكيف أترك قلبى فى صحراء الوحشة والألم ، وأنا قادر على أن أزرع له ألف حديقة . أصعب الأشياء فى الحب وأجملها أنه يجىء بلا موعد .. فليست له مواسم كالفاكهة يظهر فيها .. وليست له أوقات كالنجوم يحلق فيها .. وليست له مواعيد مثل شروق الشمس وطلوع الهلال إنه يظهر حينما يريد حتى ولو جاء خارج السياق .

قالت : وما الحل .. لا أستطيع أن أحبك هكذا .

قلت : إذا وصلت يوما إلى قرار فلتخبرينى أنت به بكل الأمانة والصراحة والوضوح وسوف أحترم رأيك .. أنا قادر على تحمل الظروف، ولكن الشىء الوحيد الذى لا أتحمله ولا أقبله أن

تتحول المشاعر بيننا إلى عبء ثقيل ، وأن يصبح هذا الإحساس الصادق الجميل شبحا مخيفا يطاردنا .. أنا على استعداد أن أسافر معك لأبعد نقطة فى الكون ما دمت أشعر بحبك .. أما إذا اخترت الاستسلام طريقا فسوف نخسر أجمل الأشياء فى حياتنا .. وسوف نندم كثيرا ولكن بعد فوات الأوان.

قالت : وإلى متى سوف نتحمل ما نحن فيه .

قلت : أنا معك أملك الدنيا .. رغم أنك بعيدة .. ومن غيرك لا أجد شيئا فى الدنيا يستحق أن أحزن عليه .

* * *

فى الحب .. لا نعرف المسافات

قالت : ما الفرق بينى وبين غيرى ؟!

قلت : الفرق الوحيد عندى أننى أحبك أنت .. ولهذا لا يعنينى شخص آخر . فأنا من ذلك النوع من البشر يكفينى شىء واحد أحبه ويغنينى عن كل الأشياء .. ولهذا اكتفيت بك عن كل نساء الدنيا .

قالت : ولكنك لا ترانى دائما .

قلت : ومن قال لك إننى لا أراك . قد لا أراك بعينى .. ولكننى أراك دائما فى قلبى .. والفرق بين رؤية العين والقلب أننا بالعين نرى ما يدور حولنا .. ولكننا بالقلب نرى ما يجرى داخلنا .. ولأنك تسكنين كيانى فلا أحتاج ان أراك بعينى .

قالت : والمسافات التى تفصل بيننا .

قلت : تحملناها شوقًا وبعادًا .. ولكنها ما زالت تعيش بيننا حلما.

كانت المسافات امتحانًا لمشاعرنا تأكدنا منه أننا نعيش حبًا حقيقيًا وليس مجرد نزوة أو صدفة أو لقاء عابراً انتهى مع أول ضوء نهار تسلل داخلنا .. اكتشفنا أن البعد كان اختبارًا لنا .. وقد يتصور البعض أن مثل هذه المواقف لا تعنى شيئًا . ولكنها فى تقديرى تعنى الكثير.. إذا أردت أن تعرف قيمة إنسان لديك فاسأل نفسك بعد رحيله .. وإذا أردت أن تعرف أهمية شخص عندك فاسأل نفسك وهو بعيد عنك.. أحيانًا نشعر أن الحياة كلها رحلت ونحن نودع إنسانًا نحبه. الشىء الطبيعى فى الحياة أننا لا نري الأشياء كلما ابتعدت. ولكننا فى الحب لا نرى بعيوننا.. ولكننا نرى بقلوبنا.. والقلوب لا تعرف المسافات ولا تعترف بلغة الزمن.. ولا يعنيها كثيرًا القرب والبعد والفراق .. فى الحب نرى الأشياء أكثر كلما ابتعدت لأننا نشعر بقيمتها.. ونحس كيف افتقدناها.. ما قيمة شخص يجلس بجوارك ولا تشعر فى لحظة أنك تفتقده .. وما قيمة إنسان تراه كل يوم ولا تذكر شيئًا من ملامحه .. فى جانب آخر تشعر بوجود إنسان يعيش بعيداً عنك وترى كل ملامح وجهه وهو يجلس فى مكان آخر.

قالت : وهل يمكن للإنسان أن يعيش فقط بهذه المشاعر .. هل يمكن أن أحب إنسانًا لا أراه وأن أعيش بشخص تفصله عنى مسافات .. ومسافات.

قلت : أما أن أحب إنسانًا بعيدا عنى فهذا شىء ممكن .. ولكن يبقى بيننا حلم أن نجتمع يومًا ليصير الحلم حقيقة .. وهذا الحلم هو الذى يضمن استمرار المشاعر .. إن كلانا يرسم صورة المستقبل مهما كانت الصعوبات فيه .. وأن يشعر كل طرف منا أن الطريق صعب .. ولكنه ليس مستحيلاً .. وأن السفر طويل .. ولكن يمكن الوصول .

والحلم هو الذى يمطينا الإرادة .. والإرادة تعطينا القدرة .. وما دمنا نملك الإرادة والقدرة فسوف نحاول .

لو تصور السباح قسوة الأمواج وابتعاد الشاطئ فلن ينزل البحر أبدًا .. ولكنه يحاول أن يرى الشاطئ قريبًا رغم أنه بعيد .. ويحاول أن يرى الأمواج رحيمة رغم أنها فى منتهى القسوة.

قالت : ولكن المسافات بعيدة .. والرحلة قاسية.

قلت : لابد للإنسان أن يتعب من أجل شىء يحبه ويريده .. فما بالك إذا كان هذا الشىء إحساسًا كبيرًا ومشاعر عميقة .. إننا نتعب من أجل كل حلم صغير فى حياتنا .. فإذا كان هذا الحلم يعنى الحياة نفسها فكيف نبخل عليه بالتعب .. على قدر

قيمة الأشياء يكون سعينا إليها . إن الإنسان يخطئ كثيرًا إذا تصور أن الحب إحساس يمكن أن يقابله كل يوم .. الحب هذا الكائن الخرافى العجيب لم يكن يوما فى يدنا .. وفى الوقت الذى نشعر فيه إننا امتلكناه ربما وجدناه سرابًا بين أيدينا .. ربما وجد الإنسان من يحبه ويسعى إليه . ولكن المشكلة دائمًا أن يجمع بين قلبين . فالحب لا يعنى شيئًا إذا كان مجرد إحساس فى قلب واحد .. إنه يتحول إلى شبح مخيف يطارد صاحبه .. والفرق بين حب يجمع قلبين .. وحب يعيش فى قلب واحد هو الفرق بين إنسان يعيش مع شخص آخر ويتحدثان معًا .. وشخص آخر يعيش فى قصر مهجور .. ويكلم نفسه .. الأول إنسان سعيد جدًا .. والثانى مجنون جدًا .. أو فى طريقه للجنون.

* * *

لا تغارى من شعرى !

قالت : لو خيرتك من تختار .. أنا .. أم الشعر ..؟

قلت : أختارك أنت بلا تردد ..

قالت : وتخون الشعر ..

قلت : ليس فى الأمر خيانة .. ولكننى أدرك أن الشعر لن يهرب منى .. حتى وإن هرب يوما يمكن أن أستعيده .. ولكن من يعيدك لى إذا هربت .. أو فكرت فى الرحيل .. أنت والشعر احتمالان أحدهما ممكن والآخر مستحيل .. وأنت المستحيل.

إننا عادة نخاف على الأشياء التى يمكن أن تضيع منا .. فنتمسك بها.

وأنا دائمًا أخاف من لحظة فراق يمكن أن تبعثرنا فى بلاد الله.

والشعر اختارنى منذ زمن وقد فات الأوان لكى يختار غيرى. لقد ارتبطنا معا مدى الحياة. أما أنت فمن الممكن جدًا أن أفتح عينى يومًا لكى أجدك بعيدة.

وربما لا أعرف لك مكانًا أو وطنًا غير قلبى .

من أجل هذا أختارك أنتِ..

وأنا أعرف أنكِ تحبين شعرى ، ولم أشعر يوما أن بينكما خلافًا بل إن شعرى كان دائمًا تلك المرآة الصادقة التى حملت ملامح وجهك الجميل وبريق عينيك الحزينتين ولحظات جنونك وسأمك وخوفك من ذلك المجهول الذى يطاردنا..

قالت : ولكننى أغار من شعرك..

قلت : وهو أيضا يغار منك .. فى أحيان كثيرة كنت أعيش متعة اللقاء معك وأرفض أن تكون مجرد قصيدة .. وكنت أحاول أن أعيشها واقعا .. وحينما تفلت منا وتضيع تتحول إلى ذكرى .. فتصبح قصيدة .. كنت أفضل لحظة الحب إحساسا .. ثم أعيشها بعد أن تمضى من خلال الحكايات.

فأنت الحب .. والقصيدة هى الظلال .. وأنت الإحساس .. والكلمات هى الذكرى .. أنت الواقع والشعر هو الحلم.

قالت : وأيهما أقرب إلى قلب الإنسان ؟

قلت : الواقع هو الأهم .. وهو الأفضل .. وهو فى حقيقته كان حلما .. واستطاع الإنسان أن يحوله إلى حقيقة فعاش الاثنان معا ، فالحلم خيال جميل .. والواقع حقيقة حالمة.

ومن الممكن جدًا أن يبقى الحلم فى منطقة الظلال فلا يتحقق أبدًا .. ولكن الواقع أبعد ما يكون عن الظلال لأننا نعيش بكل مشاعرنا وحواسنا وقدرتنا على العطاء.

قالت : ولكن الواقع أحيانًا يمكن أن يشعرنا بالملل.

قلت : هذا يرجع إلى طبيعة الإنسان الذى يعيش هذا الواقع والإنسان «الملول» لا يرضيه شىء فى هذا العالم، ولن يقنع بشىء فيه .. والملل يرتبط عادة بعدم قدرتنا على القناعة .. وهى لا تعنى أبدًا أن نستسلم لواقعنا .. ولكنها تعنى أن نتعلم كيف نستمتع بالقليل .. ونرضى بالأشياء الصغيرة .. وكيف نقبل مبدأ الكيف وليس الكم فى السلوك والمشاعر.

قالت : وهل فى الحب قناعة؟

قلت : فرق كبير بين القناعة بالعدد .. والقناعة بالإحساس . قناعة الإحساس تعنى أننى اكتفيت .. وليس فى الحب اكتفاء.

والقناعة بالعدد أن أشعر بأن ما فى يدى لا يكفينى وأريد

منه المزيد ، ولهذا لا ترضينى امرأة واحدة ولا يكفينى إحساس واحد .. ولا تشبعنى رغبة وحيدة.

وحينما نحب نعرف القناعة بالإحساس .. لأن العدد لا يغنى أبدًا عن الإحساس .. وبمعنى آخر يمكن أن يمتلئ الإناء ويشعر صاحبه أنه فارغ لأن ما فيه لا يعنى شيئًا حتى ولو كان كثيرًا .. إنه لا يشبع ولا يروى من الظمأ.

قالت : وهل الشعر قناعة بإحساس .. أم قناعة بعدد ؟

قلت : أجمل ما فى الشعر الصادق أنه إحساس قانع وإناء ملئ بالمشاعر ، وحينما يفيض هذا الإناء تتساقط منه حبات من الماء النقى مثل ومضات الضوء التى تتناثر على جبين الصبح قبل أن تسرى فى الكون أشعة الشمس الذهبية .. وهذا ما أسميه الإحساس الصادق.. وما يسميه الناس.. الشعر.. فالشعر إحساس صادق.. والإحساس الصادق شعر جميل.. وأنت أعمق ما فى إحساسى.. وأجمل ما فى شعرى.. فهل مازلت تغارين من شعرى؟

* * *

فى لغة الحسابات..
يخسر الحب كثيرا..

قالت : أريد أن أتأكد من حبك..

قلت : لم تعد لدى براهين جديدة .. قدمت كل مرافعاتى وأوراقى .. وأنتظر من القاضى حكما عادلا .. لأننى فعلا أحبك..

راهنت على الزمن وقلت إنه المعيار الحقيقى لاختبار معادن الحب والمشاعر .. ومضت السنوات وما زلت أحبك..

راهنت على المواقف .. وقلت إن الحب إحساس عميق يتوجه موقف نبيل .. وحاولت أن أجمع دائما بين المواقف والمشاعر..

راهنت على أن الحب بيننا قد لا يجد التواصل .. ومع البعد قد ينتهي كل شيء .. وأظهرت لك الأيام أن البعد زادنا حبا.. راهنت على أن الحب يبحث دائما عن حلم يأويه .. وحاولنا معا أن نجسد هذا الحلم واقعا وحياة.

راهنت على أشياء كثيرة ربما تبعدنا .. ولكنها زادتنا قربا.

ورغم هذا كله ما زلت تسألين : أريد أن أتأكد من حبك..

إن هذا السؤال يدور فى رأسى أنا بالفعل..

لقد قدمت مرافعتى .. وأطلب منك الأدلة..

لقد قدمت دفاعى .. وأريد منك حقيقة الاتهام..

قالت : ولكنك تعلم أنى أحبك .. وأنك متأكد من ذلك..

قلت : ولكننى أحتاج إلى ما يؤكد هذا الحب .. لأن الكلام لا يكفى ..

قالت : أنسيت أنك تحترف الكلام..

قلت : أنا لا أحترف الكلام..

قالت : تحترف الكتابة.

قلت : ولا أحترف الكتابة .. إن كل سطر أكتبه يعبر عن شيء فى نفسى .. ربما كان إحساسا .. أو رأيا .. أو موقفا .. أو

حلما ولكننى لا اكتب من أجل الكتابة .. فالسطر عندى رسالة ومسئولية وأمانة قلم وضمير..

قالت : براهين الحب عندك تختلف عن براهين الحب عندى .. أنا اريد أن أحلق معك فى السماء .. وأنت تريد أن نمشى معا على الأرض .. أنت تريد حلما فى يديك .. وأنا أريدك حلما لحياتى .. أنت تبحث عن لحظة زمن .. وأنا أبحث عن عمر وحياة..

قلت : لا تطلبى منى أن أحبك بطريقتك .. وأن أشعر بك كما تريدين .. لماذا لا يحب كل منا الآخر على طريقته ؟ لماذا لا يشعر كل إنسان بقلبه .. وليس بقلب الآخر؟

قالت : حينما نتوحد معا لن تشعر أبدًا أن هناك طريقين وسوف تدرك أن لنا طريقًا واحدًا .. وحينما نحب .. لن يشعر أحد منا أنه يحب بقلبه ولكنه يحب بقلب الآخر .. بل إن المشاعر تتوحد فلا ندرى هل يحمل كل منا قلبا .. أم أننا صرنا جسدين فى قلب واحد..

هذا هو الحب الذى أريده .. واشعر به ..

أن أراك معى رغم المسافات..

وأن تعيش معى رغم أن كلا منا فى مكان..

وأن تحـــدثنى فى كل لحظـة .. وتـرانى فى كل دقـيـقـــة .. وتحتوينى فى كل زمان .

الفرق بينى وبينك أنك تحسب المسافات .. وأنا لا أفكر فى الأمــاكن .. وأنك تحـسب اللحظات .. وأنـا لا يعنينى الزمـن وأنك تقـدم أدلة ملموسـة تؤكد بهـا حبك .. وأنا أريد براهين مـجـردة .. إن أعظم الأشـيـاء فى حـيـاتنا لا مكان لهـا لكى نراها فـيـه .. وأهم الأشياء فى عمرنا لا زمان لها نحسبها عليه .. لم نر الله فى مكان محدد ولكننا نشعـر به فى كل مكان .. ولم نر يوما روحًا .. ولكنها سر الحياة .. ولم نر نبيا ولكن يملؤنا يقين بالإيمان..

وكـذلك الحـب يا صـديقى يخـسـر كـثـيـرا إذا أصـبـح مـجـرد مـرافـعـات واتهـامـات وأحـكام قـضـاة.. الحـب أن أشـعـر بينى وبين قلبى أننى أحب .. وهـذا يكفينى ..

* * *

أعلن هزيمتى أمام عينيك

اعـرف اننى كـشـفت كل أوراقى . وخـسـرت كل خيـولى..
وصرت أقف أمامك الآن بكل جوانب ضعفى .. وأعلم أن جيوشك
الغازية تحاصرنى الآن من كل جانب .. وأننى خسـرت كل معاركى
.. واستسلمت راضيًا .. ووقعت وثيقـة هزيمتى أمام عينيك ..
وأننى رضيت - وقد كنت قائدًا كبيرًا - أن اكون اسيرًا مسالمًا فى
سجن امرأة أحببتها.

أعرف يا سيدتى اننى فارس لم يضعف يومًا إلا امام قلبه..
ولم يهزم فى معركة إلا أمام طوفان مشاعره .. وماذا سافعل وانا
اقف الآن أمـامك لا حـيلة لى غـيـر قلبى.. ولا سند لى غـيـر
مشاعرى .. ولا حماية لى إلا اننى أحب.

فإذا كانت أسواق الحب قد أعلنت إفلاسها فسوف أكون أول الخاسرين .. فقد أودعت فيها كل أرصدتى .. وضاربت فيها حتى آخر أيام عمرى.

وإذا كانت بنوك الأشواق قد طردت كل عملائها فسوف أكون أول من يقف على أرصفة الشوارع حين تلتف حوله كاميرات التليفزيون والصحافة ويكتبون تحت صورته هذا الرجل راهن بعمره فى سبيل الحب .. وعاد خاسرًا .

لم تعد عندى اوراق اعتماد كى أقدمها لديك.. لأن كل الأوراق كانت مكشوفة أمامك تماما .. ولست نادما على ذلك فأنا لا أجيد اللعب على الحبال .. ولا أحب لعبة القط والفأر .. ولا أمارس العبث العاطفى .. ولا أحاول تزيين القبح . إن أجمل الألوان عندى هى الأبيض والأسود .. والأبيض هو لون النهار .. وأنا من عشاق النهار .. والأسود هو لون الحبر الذى أكتب به دائما .. لأنه أوضح الألوان فى عينى .. وقلمى لم يزيف مواقفى يومًا .

أنا لا أحب أنصاف المشاعر .. وأنصاف الحلول .. وأنصاف المواقف.

هناك حب .. أو لا حب.

وهناك موقف أو لا موقف .. أما هؤلاء الذين يرقصون على الحبال فى الحب والمواقف والسياسة فأنا لا أحبهم ولا أتعامل معهم.

أنا يا سيدتى أعلن هزيمتى أمام عينيك وعندى يقين أننى انتصرت فى أجمل معاركى.

وأعلن استسلامى أمام جيوشك الغازية وليس عندى شك فى أننى كسبت بك الدنيا .. لأننى كسبت نفسى.

وأعرف أنك الحلم المستحيل .. والأمل البعيد .. وربما كنت الوهم الجميل .. ولكننى اخترتك حلمًا على الرغم من أن لدى رصيدًا كبيرًا من الأحلام .. وجعلتك أملاً رغم أننى قد أدفع ثمن هذا الأمل ألمًا وعذابًا. وأشعر أحيانًا أنك تقفين بين الحلم والوهم.. ورضيت ذلك رغم ثقتى فى أن الأوهام مهما كانت جميلة فهى عبء ثقيل فى معظم الأحيان.

أعرف أن الحب الذى جمعنا يومًا كان أكبر من إرادتنا ، وأقوى من مقاومتنا .. وأعنف من كل إمكانياتنا .. ولكننا استسلمنا له لأنه قدرنا الجميل .. وموطننا الآمن ، وواحتنا التى ربما سافرنا عمرنا كله ولم نجد لها مثيلاً فى صحراء هذا الزمن الموحش المخيف. لم أندم لأننى أعلنت هزيمة جيوشى أمامك ، ووقعت وثائق استسلامى لك. وانسحبت إليك فى صمت مهيب .. قدمت أوراق اعتمادى وهى نبضات قلب .. وسنوات عمر .. وإحساس جميل .. ولم يعد لدى شىء أقدمه لك لأن الشعراء عادة لا يملكون شيئًا غير قصور الأحلام .. وحدائق المشاعر وأرصدة

الأمل والحب .. فإذا كانت هذه الأشياء تصلح عندك يا سيدتى فأرجوك أن تقبليها .. وإذا رفضت أوراق اعتمادى فردى إلىّ قلبى، فهو آخر ما أملك فى هذا الزمن البخيل .. ولا أعتقد أن فى الدنيا امرأة ترفض قلب شاعر .. فما بالك إذا كانت تسكن فيه.

* * *

عند الشدائد لا نرى أحداً !

قالت : شيء جميل أن تشعر أن هناك إنسانا ما .. فى مكان ما .. وزمان ما .. يحتويك بمشاعره فتجد عنده الأمان النفسى.. وتشعر أنه دون خلق الله جميعا، الأمين على سرك .. والواحة التى تحتمى فيها من صقيع الأيام ووحشة الزمن .. إنسان واحد يكفيك عن كل هذا العالم.. تشعر معه أنه الأمن إذا عصفت بك الأيام .. والسند إذا تغيرت أحوال الزمن .. والملاذ إذا تجمعت سحب الهموم حولك.

إنسان واحد فى هذا الكون يمكن أن يغنيك رغم أنك ترى حولك كل يوم آلاف الوجوه .. وتذهب إلى آلاف الأماكن.

ولا يسعدك شيء فى الدنيا أكثر من هذا الشخص الذى تشعر أنه يحبك بلا ثمن .. ويريدك بلا مقابل .. وجوه كثيرة حولك ليست أكثر من أشباح متحركة تحمل أجسامًا آدمية ولكنها على استعداد لأن تنقض عليك فى كل لحظة .. وأن تبيعك بأى ثمن . إنسان واحد تجد عنده كل شيء .. وهناك آلاف من البشر لا يعنون بالنسبة لك أى شيء.

قلت: هذا هو إحساس إنسان يقنع بكوخ صغير يحتويه ويشعر فيه أنه أكبر من كل قصور العالم .. تمنيت يوما أن أرى نفسى وسط خيمة صغيرة أمامها بعض أشجار النخيل .. وإذا أردت أن أسمع الموسيقى فلدينا العصافير .. وإذا أردت أن أرسم لوحة فالطبيعة أجمل ما شاهدت العيون فى عالم الألوان .. وإذا أردت بشرًا فحبيب واحد يكفيك.

أشعر أحيانا أن الزحام حولى أصبح سجنا مخيفا .. هذا الضجيج يحطم فى الإنسان أروع وأجمل ما فيه وهو الطمأنينة .. وهذا الصخب يدمر فينا لحظة الحب ولحظة الجمال ومتعة الإحساس.

ولكننا فى النهاية وبعد كل هذا الإزعاج نحتاج صدرًا وحيدًا يحتوينا .. وقلبا واحدًا ينبض داخلنا ولحظة وحيدة نسعد فيها.

ما أقل الأشياء التى يمكن أن تسعدنا .. وما أكثر الأشياء التى يمكن أن تشقينا.

ولهـذا ليس غـريبـا أن يشـعـر الإنسـان بالسـعـادة لأن هـناك شخصا ما فى حياته يشعره بالأمن.. شىء رائع أن يشعر الإنسان أن هناك إنسانًا يمكن أن يلجأ إليه ويجد الحنان والأمان عنده.

قالت : وهل هذا هو الحب؟

قلت : هذا إحساس أكبر من الحب .. إننا فى أحيان كثيرة نحب شـخـصـا وربما نشـعـر مـعـه بالأمـان رغم أننـا نحبـه .. قـد يسيطر علينا إحساس بالشك تجاهه .. قد نرتاب فيه .. قد نلجأ إليه فى لحظة ضيق ولا نجده .. قد نراهن عليه ونخسر الرهان.. قد يخذلنا فى محنة ، ويتخلى عنا ونحن أحوج ما نكون إليه.

إن هذا الإحساس يتشكل داخلنا ليس بالحب فقط .. ولكن بالثقة .. والمواقف .. وتجاريب الزمن والأيام.

كثيرًا ما يخذلنا الحب .. وكثيـرًا ما يتخلى الأحبـاب بعضهم عن بعض .. ولكن إحـسـاس الأمـان الذى يـحـتـوينا مع شـخـص مـا يجعلنا نكتفى به عن كل سكان هذا العالم .. ولا نستطيع أبدًا أن نفرط فيه.

قالت : وكيف يأتى هذا الإحساس ؟

قلت : إن يشبه البذرة الصـغـيـرة التى نرعـاها وتكبـر أمـام أعـيـنـنـا مع الأيام ولا نبـخـل عليـهـا بشىء .. وكلمـا كـبـرت ازداد إحساسنا بقيمتها.

ومع الزمن تصبح البذرة فرعا صغيرًا يندفع للسماء .. ثم تصير شجرة صغيرة .. ثم تمتد فروعها وتغطى كل شىء حولنا .. وحينما تصبح على هذه الحالة نشعر أن هناك سياج أمان القى بكل أشكال الحماية حولنا .. وتظللنا الشجرة بأوراقها .. وتسعدنا بثمارها وتغنينا عن كل حدائق الدنيا.

المشكلة ان هذا النوع من الإحساس يحتاج بعض الوقت .. والكثير من الصبر .. وقبل هذا كله يحتاج إلى إحساس عميق بقيمة الإنسان .. وقيمة الحب .. وقيمة العطاء.

فلا تتعجبى من هذا الإحساس الجميل لأنه نادر فى زماننا..

اجمل الأشياء فى هذه الحياة أن تجد إنسانا تحبه .. ويحبك .. ويشعر كل واحد منكما انه ملك العالم بالآخر.

فى هذا الكون الواسع البعيد يكفى أن تشعر أن هناك إنسانًا يحبك فيه .. فما اكثر الناس حولنا .. ولكننا عند الشدائد لا نرى أحدًا.

* * *

الحب أعظم ما نملك

قالت : ماذا تقول ونحن نستقبل معا عامًا جديدًا ؟ وكيف ترى عامًا مضى ؟ وماذا تنتظر من عام يجيء ؟ وأين نحن من هذا كله ؟

قلت : لا احب أن أراجع أوراق عام مضى .. فالأيام مثل كل الأشياء فيها الرخيص ومنها الثمين.. وهناك أشياء لا تساوى شيئًا على الإطلاق .. وفى سوق الأيام والسنين أفضل دائما أن أتعامل مع الأشياء الثمينة .. فلا أحتفظ فى خزائن ذكرياتى إلا بأيام تستحق أن تعيش ولو حاول الإنسان أن يحتفظ بكل سنوات عمره الغالى منها والرخيص فسوف يكتشف أنها تحولت إلى مخازن

ضخمة لأشياء رخيصة .. وما أكثر الرخيص فى زماننا .. ولكننى أفضل دائما أن أتخلص من الأيام الباهتة تلك التى لا طعم لها ولا رائحة.

مشكلة بعض الناس أنهم يحبون كل دفاترهم القديمة حتى ولو كانت قصاصات أوراق بيضاء .. ماذا تساوى أكوام من الورق الأبيض ؟.. إنها تصلح أحيانا لكى يراجع الأطفال عليها دروسهم.. لكنها لا تصلح أبدًا لكى تصنع ذاكرة إنسان أو رحلة عمر .. أوراق بيضاء .. تساوى عندى أياما بيضاء .. فكلاهما لا يبقى منه شىء على الإطلاق.

والإنسان أحيانًا يحتفظ ببعض الوجوه التى تركت أثرًا فى حياته ، ولكنه فى معظم الأحيان يتخلص من تلك الوجوه التى تاهت ملامحها فى سراديب ذكرياته.

وإذا كان العمر هو الأمس .. واليوم .. والغد .. فالأمس ضاع وما بقى منه قليل .. واليوم هو ما نملك .. ويجب أن نحافظ عليه .. أما الغد فهو ورقة يانصيب قد تكون ربحًا وقد تكون خسارة .. وقد لا تأتى على الإطلاق.

وأحب الأيام عندى ذكريات يوم مضى وبقى فى خزائن عمرى .. ويوم أعيشه ولا أريد أن ينتهى .. ويوم أنتظره لأبنى معه حلما جديدا.

واليوم الذى مضى أصبح ملكى .. فهو معى يعيش.

واليوم الذى أعيشه يشاركنى فيه طرف آخر .. وقد يدوم .. وقد لا يدوم.

أما اليوم الذى انتظره فهو أغلى الأيام عندى لأنه الغد .. وإذا كان الأمس عزيزًا علينا .. واليوم قريبا منا .. فإن الغد هو البعيد القريب .. فقد يجىء .. وقد لا يجىء.

الأمس هو الذكرى .. واليوم هو الواقع .. والغد هو الحلم.

لا يمكن للإنسان أن يعيش فقط على الذكرى .. لأنه لا يستطيع أن يمشى للأمام ووجهه للخلف.

ولا يستطيع الإنسان أن يكتفى باللحظة التى يعيشها دون أن ينظر للوراء .. لأن الحيوانات وحدها التى تعيش يومها ولا تذكر شيئًا من الأمس.

ولا يستطيع الإنسان أن يعيش فى وهم اسمه الغد.

ولهذا تتداخل الخيوط فى بعضها .. فالأمس ذكرى نتعلم منها كيف نعيش اليوم.

واليوم إحساس يجعلنا نحلم بالغد.

والعمر هو الأمس .. واليوم .. والغد.

قالت : وأين أنا فى ذلك كله ؟

قلت : كنت أجمل ما كان فى عام مضى.

وانت الآن اجمل ما فى اليوم الذى نعيشه معا.

وأتمنى أن نكون معا فى الغد.

حتى تتواصل حلقات عمرنا.

قالت : وبماذا تحلم فى عام جديد؟

قلت : أن نتخلص من بعض عيوبنا..

وألا نكرر أخطاءنا.

وأن يشعر كل منا أن الحب هو أعظم ما نملك.

* * *

هل يقتل البعد .. الحب ؟

قالت : هل يقتل البعد المشاعر ؟ .. هل صحيح ما يقال «بأن البعد جفاء» .. أو بمعنى آخر هل يقتل البعد الحب.. أم أن الحب قادر على أن يتحمل كل الأحداث والظروف ويواجه صعوبات الزمن ومشاكل الحياة؟..

قلت : هناك فرق بين أنواع البعد.. هناك البعد الاختيارى.. وهناك البعد الذى تفرضه الظروف.

إذا كان البعد اختيارًا فهذا يعنى أنه طريق للهروب.. أى أن أحد الأطراف قرر أن يبتعد لينسى وينهى كل الأشياء.. وهذا البعد الاختيارى موقف حاسم من الحب حيث قرر الإنسان أن يرتكب جريمته بسلاح اسمه البعد ..

وهناك نوع آخر من البعد هو «البعد القهرى» وهو ذلك البعد الذى تفرضه ظروف الحياة على الطرفين بحيث يصبح الابتعاد ضرورة .. ورغم أن البعد القهرى يمثل خسارة كبيرة فى الحب إلا أنه أفضل حالا من البعد الاختيارى.. لأن الأول مفروض علينا .. والثانى جئناه اختيارًا ورغبة.

وحينما يصبح البعد رغبة واختيارًا فهذا يعنى أن الحب قد وضع أقدامه على أول طريق للنهاية .. فماذا تفيد رغبتى فى البقاء مع من أحب إذا كان قد قرر الرحيل؟.. وماذا يفيد حرصى عليه إذا كان هو قد قرر بينه وبين نفسه أن يقطع كل خيوط الود.

وفى هذه الحالة يمكن أن يكون البعد هو النهاية..

أما إذا كان البعد نتيجة ظروف قهرية فرضتها الحياة .. فإن ذلك يعنى أن الحب يتعرض لظروف صعبة .. لأن البعد الاختيارى يعنى بداية النهاية .. أما البعد القهرى فيعنى أن الحب يواجه ظروفا صعبة .. قد يخرج منها سليما معافى .. وقد يخرج منها مكسورا .. وقد يخسر فيها الكثير . وقد يزداد معها قوة وعمقا وتواصلا .

إن البعد يمكن أن يكون أقصر الطرق للنسيان .. وقد يكون أيضا اختبارا دقيقا للمشاعر..

قالت : وماذا تقول عن شخص اختار البعد لينسى ؟.. هل يمكن أن ينجح فى ذلك؟..

قلت : إن ذلك يرجع إلى مدى قوة المشاعر.. فإذا كان هذا الشخص قد ابتعد لينسى فربما عاد وهو أكثر قربا ممن ابتعد عنه.. وقد ينجح أيضا فى النسيان لأن ذلك يرتبط فى الأساس بمدى عمق المشاعر.

ولكن البعد فى كل الحالات عبء ثقيل على الحب.. لأنه يضع المشاعر فى امتحان كل يوم.

إن التواصل والقرب أشياء ضرورية للغاية ولها أهمية كبيرة فى استمرار الحب .. ولكن حينما تبتعد المسافات .. وتختفى الوجوه .. ويغيب الضوء .. وتزداد مساحات الصمت .. وتصمت الأصوات وتستكين دقات القلوب .. هنا يمكن للأشياء أن تتبدل وتتغير ألوانها.

والمشكلة الأساسية أننا قد نحفظ بيننا وبين أنفسنا صورة من نحب ونبقيه داخلنا رغم المسافات.. ثم تمضى الأيام ونكتشف أن الطرف الآخر قد تغير واننا وقفنا وحدنا أمام تمثال للذكرى نسترجع أيامنا .. بينما أصبح هذا التمثال أمام من نحب صورة باهتة لعمر مضى وأيام عابرة..

البعد يمكن أن يحول الحلم إلى وهم وسراب مضى وغاب.. ويمكن أن يبقيه داخلنا حلما عزيزا غاليا ربما أصبح فى يوم حقيقة.

وما بين الحلم والوهم .. وما بين الواقع والسراب .. تبقى مشاعر الإنسان حائرة بين البقاء واللابقاء .. والحب .. واللاحب.

لكننى أكره البعد ولا أحبه .. فإذا لم ينجح فى اقتلاع جذور الحب فهو على الأقل يتركنا مشاعا للظنون.

* * *

بين الحلم .. والذكرى

قالت : سأبقيك فى عمرى ذكرى..

قلت : سأبقيك فى قلبى حلما..

قالت : وما هو الفرق بين الحلم .. والذكرى ؟

قلت : إذا صار الحب ذكرى .. فذلك يعنى أننا أسدلنا عليه الستار .. وواريناه فى جزء عزيز من قلوبنا .. ودخل فى نطاق ذكرياتنا..

أما إذا بقى الحب حلما .. فذلك يعنى أننا ما زلنا ننتظر عودته .. وأننا قررنا مع أنفسنا أن نبقيه داخلنا ربما تتغير الظروف وتتبدل الأحوال ونستطيع أن نحقق حلمنا فيه..

قالت : معنى هذا أن الحب يبقى فى الحالتين .. الحلم أو الذكرى..

قلت : إن البقاء لا يعنى القيمة داخلنا .. لأننا أحيانا نبقى على بعض الأشياء رغم أنها انتهت وتلاشت .. ولكن بقاء الحلم يختلف تماما عن بقاء الذكرى .. إن الذكرى هى الأمس .. والحلم هو الغد وهناك فرق كبير بين إنسان يمشى للوراء وآخر يمشى للأمام .. هناك فرق بين من يعيش ذكريات الماضى ومن يتصور أحداث الغد.

فإذا كنت قد أصبحت عندك ذكرى فذلك يؤكد أن الأشياء قد انتهت عندك.. رغم أنها مازالت باقية عندى..

قالت : ولكننى مازلت أحبك..

قلت : هل هو حب الذكرى .. أم حب الحلم ؟

قالت : وما هو الفرق؟

قلت : إذا كان حبك لى ذكرى .. فهذا يعنى أننى أخذت جزءًا من أيامك ومضيت .. أما إذا كان حبك حلما فهناك أمل أن يعود الحب بيننا يوما.

قالت : أنت تدرك قسوة ظروفى .. وحياتى ..

قلت : ولكن الحب يبقى رغم كل الظروف..

قالت : إننا نظلم الحب كثيرا إذا فرضنا عليه أشكالا من الحصار والتعسف وطالبناه أن يبقى مشرقا ومضيئًا .. كيف نطلب بقاء الحب وكل الأشياء تحاربه وتفقده القدرة على المقاومة؟!

لا أتصور إنسانا أحبه .. ولا أستطيع أن أحبه كما أريد وأتمنى ، إن للحب طقوسه ومسئولياته ولا يستطيع الإنسان أبدًا أن يعيش حبا في حصار..

قلت : ولكن الظروف أحيانا تكون الاختبار الحقيقي للمشاعر ..

قالت : هناك فرق بين ظروف تختبر قدرة الأشياء وظروف أخرى تغتال هذه الأشياء ..

ففرق كبير بين أن تختبر صحة إنسان في لعبة رياضية .. أو أن تختبر صحته فتلقي على رأسه حجرًا يقتله..

الظروف القاسية في أحيان كثيرة تقتل الحب.. وتدمر المشاعر..

قلت : لقد حاربتنا الظروف أكثر من مرة .. وكانت صعبة وقاسية .. وبقي بيننا الحب . لقد حملتنا بلاد الله شرقا وغربا ووضعت أمامنا آلاف السدود .. ورغم هذا تجاوزنا كل شيء واجتمعنا مرة أخرى .. هل كان في حسابك بالأمس القريب أن نكون معا الآن ويدور بيننا هذا الحوار ..؟

قالت : لم أتصور أننا سنلتقى أمام هذه الظروف..

قلت: والتقينا.. إن هناك إرادة للبشر.. تحكمها أحلامهم وظروفهم ومسئولياتهم فى الحياة.. وهناك إرادة للقدر لا يستطيع الإنسان أن يدرك حدودها..

لقد قررت أنت أن أكون فى عمرك ذكرى ..

وقررت أنا أن أبقيك فى قلبى حلما ..

وربما كان للأقدار قرار آخر ..

* * *

البائع خسران

لدينا مثل يقول : البائع خسران .. وإذا كان هذا ينطبق على الأشياء المادية فإنه ينطبق أكثر على الحب . فى سوق الأشياء ؛ الخسارة تقع دائمًا على البائع .. وفى سوق الحب أيضا البائع هو أكثر الطرفين خسارة .. إن البائع فى الحب هو الذى سيندم يوما خاصة إذا جلس مع نفسه وأوراق الخريف الصفراء تتساقط أمام عينيه .. سوف يكتشف أنه باع الحب يوما فى لحظة طيش أو جنون .. وترك الحب داره ولم يرجع .

وفى حياة الإنسان خسائر كثيرة لكن خسارة الحب لا تعوض.. إنك قد تستبدل البيت ببيت آخر .. والسيارة بسيارة أخرى وحتى العمر تستطيع أن تعيشه بصورة أخرى، ولكن الحبيب غير قابل للاستبدال لأنه شخص واحد لن يتكرر .

ولهذا لا يمكن أبدًا أن تتشابه قصة حب مع قصة حب أخرى ولا يمكن أن يعود الزمن بنا للوراء لكى نشترى حبيبا بعناه فى لحظة غضب .. أو فرطنا فيه فى لحظة ضيق.

ولهذا فإن خسارة الحب لا تعوض.

وهناك فرق كبير بين شخص يشترى الحب.. وآخر يبيعه، إن من اشترى الحب ينام مرتاح الضمير.. هادئ النفس والفؤاد .. لقد اشترى وغيره باع.. إنه يشعر دائما أنه كان الأوفى.. والأصدق والأكثر عطاء وإخلاصا .. ولهذا فهو غير نادم على شيء.

وحينما يمضى أمامه شريط الأيام والذكريات يرى فيه مواقف كثيرة يذكرها .. إنه غنى بذكرياته الطويلة والباقية مع من أحب .. إنه يشعر أن خسارته كانت فى إنسان تخلى وباع ، بينما كان ربحه فى ذكريات عمر جميل لن تفارقه.

أما الذى باع فيبقى فى كل الحالات مطاردًا من أشباح الوحشة والخوف ، وهى تدق أبوابه كل ليلة.

إن الذى اشترى سوف يجد أشياء كثيرة تؤنس وحدته.. سوف يجد أياما حافلة بالذكريات .. ومواقف مليئة بالصدق .. وسنوات عمر جميل يقف أمامه فى كل لحظة.. لن يشعر أبدًا أنه وحيد .. وفى جانب آخر يقف الذى باع وهو يشاهد أمامه

مجموعة أطلال وخرائب ، وهو لا يصدق أن هذا ما بقى له من الرحلة .. ويحاول أن يسترجع الزمن، ويأبى الزمن أن يعود ويحاول أن يصلح ما فسد .. أو يمد جسورًا تكسرت .. ويكتشف أن ذلك كله أصبح فى دائرة المستحيل.

ولهذا أفضل دائمًا أن أشترى لآخر لحظة حتى ولو باع غيرى .. ولا أعتقد أن فى ذلك تنازلا أو إساءة للكرامة .. ولكن الإنسان يجب أن يكون حريصا على الأشياء الثمينة فى حياته ولا يفرط فيها بسهولة.

وهناك بعض الناس يبيعون أشياء ثمينة للغاية بأسعار زهيدة .. لأنهم لا يدركون قيمتها أو لأنهم اعتادوا على بيع كل شىء ابتداء بساعاتهم الذهبية وانتهاء بمشاعر الحب التى سكنتهم يومًا .. ويكتشف هؤلاء عادة بعد فوات الأوان أنهم خسروا كل شىء .. وأن البائع خسران مهما كانت مكاسبه.

وهناك أيضا بعض الناس الذين يرفضون بيع أشيائهم حتى ولو كانت محدودة القيمة .. وهذا النوع يعتبر الأشياء جزءًا منه .. فلا يفرط فيها .. فما بالك إذا كان هذا الشىء هو قلب الإنسان نفسه.

من أجل هذا أفضل دائمًا أن تبقى الأشياء معى حتى ولو كانت قيمتها محدودة لأنها عمرى.

وفى الحب أفضل أن أنام مظلوما .. ولا أنام ظالما .. وأن أشترى .. وأترك البيع لغيرى .. وفى كل الحالات كنت أشعر أنهم خسروا .. وأننى ربحت .. وأننى أنام مرتاحا حتى لو كنت مظلوما .. لأن المظلوم فى الحب أفضل ألف مرة من الظالم.

* * *

أنا .. أحبك أكثر

قالت : من منا بدأ بالحب .. أنا .. أم أنت..؟

قلت : ليس المهم من بدأ .. ولكن المهم من استمر .. والبداية عادة هى الشرارة الأولى .. ولكن النهاية أهم .. لأنها تعنى بقاء الأشياء .. واستمرارها ليس المهم من يتفوق فى بداية السباق .. ولكن المهم من يحمل لقب الفوز .. والبدايات عادة تحمل بكارة المشاعر وسخونة الإحساس وتدفق الأعماق ولكن هذه الأشياء جميعها يمكن أن تهدأ وتستكين إذا لم تجد المشاعر المتبادلة والحرص والإحساس بالمسئولية .. قد نغرس معا شجرتين .. وبعد عام واحد ترتفع إحداهما عن الأخرى وتتفوق عليها ، والفرق فى ذلك ليس فى نوع البذور .. ولكن الفرق فى

درجة الرعاية .. فإحدى الشجرتين لاقت رعاية أكثر .. واهتماما أكبر .. ولذلك كبرت وطالت قامتها فى السماء .. وما يحدث فى الأشجار يحدث أيضا فى الحب..

قالت : ولكننى كنت أعرفك وأنت لا تعرفنى ..

قلت: هذا يحسب لى.. ولا يحسب علىَّ.. لقد كنت تعرفين عنى أشياء كثيرة .. وأنا لا أعرف عنك أى شيء .. وهذا يعنى أن إحساسى بك كان أعمق .. إن من عرف طريقا لا يمكن أن يتوه فيه وهذا حالك معى ، كنت تعرفين عنى أشياء كثيرة.. أما أنت فكنت طريقا غريبا غامضا ورغم ذلك مضيت فيه دون أن أتوه.. كأننى أعرفه من سنوات بعيدة.. كأننى مشيت فيه مئات المرات.. لم أشعر للحظة أننا نبدأ حديثا.. ولكننى كنت أشعر أننا نستكمل حديثا بدأناه منذ زمان بعيد.

ولعل هذا يؤكد يقينى بأننا لا نحمل أعمارنا .. وأن هناك مساحة لا ندركها فى أعماقنا .. حينما رأيتك للمرة الأولى شعرت أن هذا لم يكن أول لقاء لنا .. ولهذا سألت نفسى هل يمكن أن تلتقى الأرواح قبل الوجوه .. وهل يمكن أن تكون للأرواح لغة تسبق لغة الكلام. وهل يمكن أن تكون هناك جسور بيننا من الود والتفاهم قبل أن نبدأ الحوار، عندما تحدثنا للمرة الأولى شعرت أن هذا الوجه طاف فى خيالى يوما .. متى كان ذلك لا أعرف..

وأن هذه العيون سكنت أعماقى يوما .. ومتى كان ذلك لا أعرف.. وأننا نتحدث فى أشياء قلناها وحكيناها قبل ذلك..

ومن هنا يزداد يقينى بأن فى الحب شيئا ما بعيد تماما عن إراداتنا وحساباتنا .. وأن المشاعر التى تقتحم قلوبنا هى عادة خارج حدود الإرادة الإنسانية المباشرة .. فهل يمكن أن يكون الحب ساكنا فينا ونحن لا نعرف .. وهل يمكن أن تملأنا المشاعر وتنتظر من يجىء لكى يطلق العنان لها..

فى الحب إرادة قدرية لا يمكن لنا أن ندرك حدودها لأنها خارج كل الحدود .. ما الذى يجعل مشاعر الإنسان تتحرك فى اتجاه ما وترفض الاتجاه المقابل .. ما الذى يجعل قلبى يخفق حينما يرى إنسانا رغم عشرات الوجوه التى تطارده .. ما الذى يجعلنى أختار طريقا أمشى فيه وأمام عينى مئات الطرق .. هذا الاختيار التلقائى لا يقوم على حسابات أو ترتيبات أو صور مرسومة .. إنه قدر يقتحم كل شىء ويفرض واقعًا جديدًا على الإنسان .. ولهذا أرى أن فى الحب نوعا من الديكتاتورية إنه لا يؤمن أبدًا بأساليب الديمقراطية وحقوق الإنسان .. فالحب ديكتاتور كبير يمارس كل ألوان التسلط الجميل .. والبطش والاستبداد دون أن نعترض ..

الحب هو الشىء الوحيد الذى نرى فى طاعته اعتزازًا وفى

جبروته رحمة وفى تسلطه احترامًا لآدميتنا كبشر .. ما أجمل الطاعة مع من نحب .. وما أجمل جبروت المشاعر الصادقة التى نشعر معها أننا بشر .. وما أعظم تسلط القلوب إذا عشقت وتجاوزت حدود الناس والأشياء.

وحينما سقطت ديكتاتوريات الحب بين الناس وسادت ديكتاتوريات التسلط أخذ الحب أوراقه وذكرياته ورحل .

قالت : مازلت أسأل من فينا بدأ بالحب؟

قلت : مازلت أقول.. ليس المهم من بدأ ولكن المهم من أبقى على المشاعر.. من فينا صان الود.. وحفظ العهد وكان للحب أهلاً يمكن أن تقولى إنك بدأت بالحب.. وأن أقول إن حبى كان أكبر.. وكلانا صادق حتى الآن.. ولكن الأيام وحدها هى صاحبة الرأى والقرار لتقول لنا يوما من منا كان أكثر حبًا.. وحافظ على الآخر.

★ ★ ★

حتى لا يضيع العمر ..

قالت : حدثني عن السعادة..

قلت السعادة تختلف حسب فترات العمر..

في طفولتنا تسعدنا لعبة صغيرة..

وفي شبابنا يسعدنا طموح وحلم نجري خلفه..

وفي رجولتنا يسعدنا حب يحتوينا..

وفي الشيخوخة نحتاج ظلال شجرة حانية تحمينا من حرارة الأيام ومرارة الوحدة..

ويجب على الإنسان أن يختار شيئًا يسعده في كل فترة من فترات حياته..

يجب أن نضع كل الأوراق أمامنا حتى لا نخسر الرهان .. إذا سبق الطموح الحب .. ندمنا بعد ذلك على الإحساس الصادق الذى أهملناه .. وإذا سبق الحب الطموح .. ندمنا على النجاح الذى كان بين أيدينا ولم نعرف قيمته..

وإذا ضاعت طفولتنا بكينا فيها زمن البراءة..

وإذا ضاع الشباب بكينا فيه الحلم..

وإذا ضاع الحب .. خسرنا كل الأشياء : العمر والنجاح والحلم.

ولهذا أعتقد أن كل الخسائر تعوض.. الحلم يأتى ويذهب.. والنجاح يجىء ويرحل .. والعمر مراحل تختلف فى ظروفها ومشاعرها.. ولكن الحب هو الشىء الوحيد الذى لا يتكرر .. لأن الإنسان حالة فريدة.. ومن الصعب أن تجد إنسانا شبيهًا تمامًا بإنسان آخر.. ولكن الأشياء قابلة للتكرار.. الفرص.. والنجاح.. والأحلام.. ولكن من منا يستطيع أن يسترجع إنسانًا ضاع منه يومًا..

ولهذا أرى أن خسارة الحب هى أكبر الخسائر .. وأننا أحيانًا أمام مظاهر الحياة والأشياء والبشر نتصور أن الحب يمكن أن يجىء فى أى وقت .. وأن النجاح هو الأهم .. سواء كان مالاً أو مجدًا .. وبعد أن نحقق النجاح نبحث عن الحب ولا نجده.

وليس معنى ذلك أن يهمل الإنسان حياته وطموحه وأحلامه.. ولكن يجب ألا ينسى فى رحلة أحلامه.. أن القلب يصدأ.. وأن المشاعر تجف.. وأن النبض يتسرب من بين أيدينا كسنوات العمر.. ونجد أنفسنا فجأة بعد أن حققنا كل شىء ننظر حولنا نحاول أن نجد حبيبًا أو رفيقًا يؤنس وحدتنا.. ونكتشف أن الصفقة كانت خاسرة..

ولهذا أرى أن السعادة الحقيقية ليست فى المال ولا فى المناصب ولا فى المجد أو الشهرة.. السعادة فى الحب..

حينما نحب.. تتجدد الخلايا فى أجسامنا.. مثل الربيع تمامًا حينما يجتاح بحيويته الأشجار الباهتة فتنطلق بين فروعها الدماء.. فتزداد جمالاً وجلالاً .

حينما نحب .. تتغير ألوان الأشياء فترحل أشباح الكآبة والحزن من حياتنا وما كان ميتًا يعود وتنساب فيه دماء الحياة .. وما تصورناه يأسًا دبت فيه نشوة الأمل وفرحة الحلم..

حينما نحب.. يصبح للنجاح طعمًا .. وللحياة معنى.. ما أجمل أن يكون النجاح مع إنسان يشاركنا فرحته.. وما أجمل أن ننتظر إنسانًا نشعر انه لنا.. وأننا له.. وأن المسافات تزيدنا اقترابا.. وأن البعد يزيدنا شوقًا.

حينما نحب تصغر سنوات العمر .. ويرجع الزمن للوراء ..

ونرى فى وجه من نحب شبابًا جديدًا .. وحلمًا واعدًا .. وحياة تستحق أن نعيشها.

قالت : وماذا ستقول عنى ؟

قلت : انت كل هذه الأشياء .. حينما أنظر للوراء أندم على العمر الذى تسرب منى .. وحينما أكون معك أشعر ان الزمن كافأنى، وأن الأيام التى ستجيء ستكون لنا عوضًا عن أيامنا التى رحلت ..

معك أشعر أن للحياة معنى .. وللنجاح قيمة .. وأن ما ينتظرنا أكبر بكثير من كل ما خسرناه .. وأن الغد سيكون أجمل كثيرًا من الأمس .. السعادة عندى أن أحبك .. قد يزداد الضجيج حولنا ناسًا وأشياء .. لكن الإنسان فى النهاية سوف يهدأ مع شيء واحد.. ويرتاح إلى قلب واحد .. ويجد سعادته مع إنسان واحد.

ما قيمة الناس وليس بينهم إنسان واحد يحتوينى .. وما قيمة الأشياء وليس فيها شيء واحد يسعدنى .. وأنا اكتفيت بك عن كل الأشياء وكل الناس ..

★ ★ ★

عندما تتهاوى قصور الأحلام

قالت : بنيت مع حبيبى قصرا من الأحلام .. ارتفع بنا القصر حتى وصل إلى أعلى نقطة فى السماء .. تجاوزنا حدود النجوم .. وحلقنا بعيدا ورأيت بعينى مع الرجل الذى اختاره قلبى كل مسارات الكواكب حلقت معه فى كل مكان .. ووجدت نفسى اتبعه فى كل أرض .. وأصبح مع الأيام بيتى .. وحصنى .. وملاذى.. أصبحت لا أرى فى الكون شيئا أجمل من بريق عينيه .. وتحولت إلى نجم صغير أدور فى فلكه .. باختصار شديد أصبح حلمى معه كل شىء فى حياتى .. والآن تحولت حياتى معه إلى شىء آخر .. أصبح القصر الكبير مجرد حفرة صغيرة تحتوينى

بين الصمت والرياح والوحشة .. وبعد أن وصلت إلى أعلى نقطة من السماء وجدت نفسى فى أبعد نقطة فى بطن الأرض.

وبعد أن تعلمت معه الطيران .. تكسر ريشى .. وضعفت قدرتى وتراجع رصيد الأحلام معه فأصبح صفرا .. هل رأيت رجلا ثريا يملك الملايين وقد أفلس وباع كل ما عنده ووقف على الطرقات يتسول ويسأل الناس عونا ؟! هذا أنا .. كنت يوما أملك رصيدا ضخما من الأحلام ، والآن أقف على الطريق فى حالة ذهول لا أفيق منها ولم يبق بين يدى شىء إلا بقايا رماد تذكرنى بذلك القصر الجميل الذى سكنته يوما فى أحلامى وتحول إلى أنقاض .. كيف يبدأ الحلم كبيرا وينتهى إلى لا شىء .. وما الذى يجعلنا نقبل ذلك .. كيف أصبح الآن مجرد سطر فى كتاب وقد كنت الكتاب كاملا كيف أرضى لنفسى أن أصبح جدارا متهاويا فى قصر كبير وأنا الذى بنيت القصر بالعمر والدم والدموع؟!

خبرنى لماذا نقبل أنصاف الأشياء .؟ كيف أصبح نصف حبيبة ونصف حلم ؟.. وأعيش نصف لحظة وأرضى أن أكون سطرا فى كتاب ؟

قلت : من أصعب الأشياء على الإنسان أن يجد نفسه مطالبا بأن يلعب دور الكومبارس فى فيلم كان مرشحا للبطولة فيه . ومن أقسى اللحظات على الإنسان أن يجد نفسه فى غير

مكانه.. لقد بنيتم معا قصرا جميلا من الأحلام ، وكان من الممكن أن يكون هذا القصر لكما بيتا .. وعمرا وحياة .. وأنا لا أعرف الأسباب التى حولت القصر إلى بقايا .. ولا أعرف الدوافع التى جعلت منك سطرا فى حياة رجل بعد أن كنت كل شيء عنده .. ربما كانت الظروف والأقدار .. ولكن أيا كانت الأسباب فأنا أعتقد أن الإنسان ربما قبل أنصاف الحلول وأنصاف المواقف أمام قلب أرهقته المشاعر، ولكنه بكل تأكيد سوف يضيق فى لحظة ما ويدرك حقيقة الأشياء حوله.

عندما يفيق من غفوته سوف يكتشف أنه ينام على الرصيف رغم أن الحلم الكبير الذى صنعه الحب كان قصرا كبيرا.. وسوف يدرك أنه يقف أمام الناس عاريا، وأن عليه أن يستر نفسه.. وليس هناك أقسى على النفس من عرى المشاعر.

وعندما تتراجع الأحلام بنا . ويصبح القصر جدارا . ويصبح التاج عريا .. ويصير الكتاب سطرا .. ويتحول الإحساس الكبير إلى صورة باهتة .. هنا يجب أن يقف الإنسان مع نفسه. ويعيد ترتيب أوراقه حتى لا يصبح الحب قيدا أزليا لا فرار منه. أنا مع كل إحساس جميل .. ولكن الكبرياء أجمل.

أنا مع التضحية وإنكار الذات .. ولكن بشرط الا تكون من طرف واحد.. أنا على استعداد لأن أدافع عن مشاعرى حتى آخر نقطة فى هذا الكون ولكن مع من يقدر هذه المشاعر.

قالت : وماذا أفعل الآن فى هذا القصر الكبير الذى لم يعد لى فيه مكان .. هل أعيش العمر أبكى على أطلاله.

قلت : أنا لا أحب البكاء على أطلال أشــــيـــاء رحلت .. ولا أطالبك بهدم ما بقى من قصر الأحلام الذى يتهاوى .. ولكننى أحيانا أترك للأقدار بابا صغيرا ربما عبر منه الأمل فأصبح القصر حقيقة .. ومن يدرى ربما صار يوما .. حقيقة.

★ ★ ★

يا قدرى الجميل ..

قالت : ما بيننا أكبر من الناس والظروف والمشاكل .. أصبحت أتعامل معك كيانا ثابتا فى حياتى .. أراك حقيقة لا أستطيع الهروب منها ولا أريد .. لذلك جئت لكى أراك.

قلت : لم أشعر يوما أننا افترقنا .. لم أتصور أن يمضى يوم من عمرى دون أن أرسم صورتك فى خيالى عشرات المرات .. حتى أننى أيقنت بينى وبين نفسى أنك حذفت كل الماضى .. وأخذت كل الحاضر .. وصادرت من عمرى كل أطياف المستقبل .. لم أعرف يومًا امرأة ألغت التاريخ من ذاكرة الرجل واعتبرت نفسها بداية ونهاية الحياة .. منذ عرفتك وأنا أتجول فى أيامك ناسيا كل ما مضى مكتفيا بحاضرى معك .. ولا أتصور لى مستقبلا

بعيدًا عنك.. أنا لا أكاد أصدق أننا معا الآن .. ولكن من أجمل الأشياء بيننا تلك المصادفات الجميلة التى عشناها .. كان لقاؤنا الأول صدفة .. وكانت معظم أيامنا بعد ذلك مصادفات صنعتها الأقدار.. حتى فراقنا أيضا كان صدفة . والآن أراك أمامى .. لم أشعر أنك غبت عنى هذه الفترة الطويلة .. أكملت حديثا ربما توقف بيننا يوما ولكنه بقى بيننا وهو يدرك أننا سوف نكمله كأننا كنا بالأمس معا .. نظرت فى عينيك .. كم أحب عينيك .. وتوقفت الكلمات على لسانى وإن كانت عيوننا قد قالت ما يقال وما لا يقال.

كانت فرحتنا باللقاء أكبر كثيرًا من رغبتنا فى العتاب.. وكانت أشواقنا أكبر بكثير من أحزاننا .. وكان الحب أقوى من كل معاناتنا.. لا أدرى لماذا توقف الزمن بى عندك ورفض أن يمضى.. إن الأيام تسرع والأحداث تتلاحق من حولى والحياة تأخذنا فى كل اتجاه.. ولكن هناك شيئا بيننا أكبر من كل الأحداث .. هناك لحظة بيننا توقف عندها كل شىء .. توقفت عقارب الساعات .. وحركة الأشياء وإيقاع الزمن .. وبقيت بيننا نحن لا شىء يغيرها.. إنها ذلك الإحساس العميق الذى تسلل يوما فى أعماقنا وفرض وصايته.. ولم نستطع من يومها أن نهرب منه .. كأنه قدرنا الذى لا مفر منه . أكاد لا أصدق أنك معى الآن .. رغم أنك كنت دائما

معى .. إذا شعرت بلحظة سعادة بينى وبين نفسى تمنيت لو كانت معك .. إذا صادفت نجاحًا .. تمنيت لو كنا معا.

وحينما كانت ليالى الحزن تعصف بالقلب الحزين كنت أقول لنفسى ليتنا نحزن معا .. افتقدتك دائما فى كل لحظة عشتها مع نفسى ومع الآخرين وفى كل هذه المشاعر كنت أراك بجانبى حتى أننى كثيرًا ما تخيلتك تجلسين هنا أو هناك وسط ضجيج الناس وصخب الشوارع.. كانت الصدفة كافية لأن تزيل كل ما لدينا من عتاب .. لم أحاول أن أسترجع أحداث الماضى .. ولم أحاول أن أفتح جروحا تألمنا بسببها يوما .. ولكننى حاولت أن أعيش معك هذه اللحظة الغريبة التى جاءت خارج سياق الزمن والحياة . كان لدى إحساس غريب قبل أن أراك أنك فى الطريق إلىَّ . وكنت أراك من بعيد كألوان الطيف التى تتهادى فى ساعة شروق صافية.. كان عندى ما يشبه اليقين أننا لن نفترق .. مرات كثيرة فقدنا الأمل فى التواصل .. ومرات كثيرة كانت الظروف تقهرنا .. ومرات كثيرة كنت أراك من بعيد ذلك الحلم المستحيل .. ولكن وسط هذا كله كنت أشعر أن ما بيننا تجاوز حدود إرادتنا .. وأننا نتصور أننا نملكه رغم أنه فى الحقيقة يملكنا .. إنه قدرنا الذى لا نستطيع الهروب منه.

وتوقفت كلمات كثيرة على لسانى كان عندى الكثير والكثير، ، وكانت عقارب الساعات حولنا تطاردنا من كل اتجاه.. ونظرت

فى عينيك وشعرت أن فيهما زمنى.. لقد نسيت فيهما الماضى.. ورأيت فيهما الحاضر.. ولا مستقبل لنا إلا بما بقى لنا من مشاعر فاقت كل الحدود.. الناس تهرب من ماضيها إلى حاضرها.. وتهرب من حاضرها إلى مستقبلها.. وأنا حائر فيك لأننى حينما أهرب منك أكتشف دائما أننى أهرب إليك يا قدرى الجميل.

★ ★ ★

الحزن .. هذا الضيف الثقيل

لا تيأس إذا تعثرت أقدامك وسقطت في حفرة واسعة .. فسوف تخرج منها وأنت أكثر تماسكا وقوة .. لا تحزن إذا جاءك سهم قاتل من أقرب الناس إلى قلبك .. فسوف تجد من ينزع السهم ويداوي الجرح ويعيد لك الحياة .. لا تضع كل أحلامك في شخص واحد .. ولا تجعل رحلة عمرك وجه امرأة تحبها مهما كانت جميلة .. ولا تعتقد أن نهاية بعض الأشياء هي نهاية العالم .. فليس الكون هو ما ترى عيناك.

لا تنتظر حبيبا باع .. وانتظر ضوءا جديدا يمكن أن يتسلل إلى قلبك الحزين فيعيد لأيامك البهجة ويعيد لقلبك نبضه الجميل.

لا تحاول البحث عن حلم خذلك .. وحاول أن تجعل من رحلة الانكسار بداية حلم جديد.

لا تقف كثيرا على الأطلال خاصة إذا كانت الخفافيش قد سكنتها والأشباح عرفت طريقها.. وابحث عن صوت عصفور يتسلل وراء الأفق مع ضوء صباح جديد.

لا تنظر إلى تلك الأوراق التى تغير لونها .. وبهتت حروفها.. وتاهت سطورها بين الألم والوحشة .. وسوف تكتشف أن هذه السطور ليست أجمل ما كتبت .. وأن هذه الأوراق ليست آخر ما سطرت .. ويجب أن تفرق بين من وضع سطورك فى عينيه .. ومن ألقى بها للرياح .. لم تكن هذه السطور مجرد كلام جميل عابر .. ولكنها مشاعر قلب عاشها حرفا حرفا.. ونبض إنسان حملها حلما .. واكتوى بنارها ألما .. لا تكن مثل مالك الحزين هذا الطائر العجيب الذى يغنى أجمل ألحانه وهو ينزف .. فلا شىء فى الدنيا يستحق من دمك نقطة واحدة.

إذا أغلق الشتاء أبواب بيتك.. وحاصرتك تلال الجليد من كل مكان.. فانتظر قدوم الربيع وافتح نوافذك لنسمات الهواء النقى.. وانظر بعيدا فسوف ترى أسراب الطيور وقد عادت تغنى.. وسوف ترى الشمس وهى تلقى خيوطها الذهبية فوق أغصان الشجر لتصنع لك عمرا جديدا وحلما جديدا.. وقلبا جديدا.

ادفع عمرك كاملا لإحساس صادق وقلب يحتويك .. ولا تدفع منه لحظة فى سبيل حبيب هارب .. أو قلب تخلى عنك بلا سبب .. لا تسافر إلى الصحراء بحثا عن الأشجار الجميلة فلن تجد فى الصحراء غير الوحشة .. وانظر إلى مئات الأشجار التى تحتويك بظلها .. وتسعدك بثمارها .. وتشجيك بأغانيها.

لا تحاول أن تعيد حساب الأمس .. وما خسرت فيه .. فالعمر حينما تسقط أوراقه لن تعود مرة أخرى .. فانظر إلى الأوراق التى تغطى وجه السماء ودعك مما سقط على الأرض فقد صار جزءا منها.

إذا كان الأمس ضاع .. فبين يديك اليوم.

وإذا كان اليوم يجمع أوراقه ويرحل .. فلديك الغد..

لا تحزن على الأمس فهو لن يعود.

ولا تأسف على اليوم .. فهو راحل..

واحلم بشمس مضيئة فى غد جميل.

إننا أحيانا نعتاد الحزن حتى يصبح جزءا منا ونصير جزءا منه .. وفى بعض الأحيان تعتاد عين الإنسان على بعض الألوان ويفقد القدرة على أن يرى غيرها .. ولو أنه حاول أن يرى ما حوله لاكتشف أن اللون الأسود جميل .. ولكن الأبيض أجمل .. وأن لون

السماء الرمادى يحرك المشاعر والخيال ولكن لون السماء أصفى فى زرقته .. فابحث عن الصفاء ولو كان لحظة .. وابحث عن الوفاء ولو كان متعبا وشاقا وتمسك بخيوط الشمس حتى ولو كانت بعيدة .. ولا تترك قلبك ومشاعرك وأيامك لأشياء ضاع زمانها..

وإذا لم تجد من يسعدك فحاول أنت أن تسعد نفسك وإذا لم تجد من يضىء لك قنديلا .. فلا تبحث عن آخر أطفأه..

وإذا لم تجد من يغرس فى أيامك وردة فلا تسع لمن غرس فى قلبك سهما ومضى..

أحيانا يغرقنا الحزن حتى نعتاد عليه .. وننسى أن فى الحياة أشياء كثيرة يمكن أن تسعدنا وأن حولنا وجوها كثيرة يمكن أن تضىء فى ظلام أيامنا شمعة .. فابحث عن قلب يمنحك الضوء ولا تترك نفسك رهينة لأحزان الليالى المظلمة.

★ ★ ★

إلى امرأة لم تفهمنى ..

قالت : أسرفت فى أحلامك معى..

قلت : وهل معنى ذلك أن نترك النار تحرق أصابع طفل حاول أن يعرف مصدر الضوء الذى تراه عيناه .. كان الطفل مبهوراً بكثافة السوء الذى يحتويه فحاول أن يقترب منه أكثر .. فهل أخطأ .

إذا كنت قد أسرفت فى أحلامى فإنما يشفع لى أن ذلك كان حبا .. ولم يكن مجرد رغبة .. وأن ذلك كان يقينا ولم يكن سحابة شك .. وأننى تجاوزت حدود اللحظة إلى آفاق الزمن.

وتجاوزت حدود الزمن لكى يصبح الزمن حياة .. فهل أخطأ من رسم لك ومعك طريقًا جديدًا للحياة؟

ـ : ولكنك كنت تدرك مأساة الظروف..

، : لا يوجـد سـجين فى العـالم لا يحلم بأن يرى لون
ـ يستنشق هواء نقيا .. ولا أن يتصور نفسه يسير على
ـر .. ولا أن يشعـر بنفسـه بين أحضان من يحب .. إن
مكن ابدًا ان يكون قيدًا على أحلامنا .

ا كـانت أقدامنا ملتصـقـة بتـراب الأرض فمـازالت فـينا
ـبح فى سـمـاء هـذا الكون وتتجـاوز كل الحـدود .. وإذا
نا قصيرة لا تستطيع أن تصل إلى ثمار النخيل البعيدة
قادرة على الوصول.

ـسب الإنسـان كل شىء على أسـاس قـدراته من خـلال
ى يعيش فيه لما تغير شىء فى وجه الكون.

الأنبياء دعـواتهم فيمن حولهم .. وانتشروا بعد ذلك فى
كون.

الشعـراء إبداعاتهم بأبيات قليلة يرددونها مع أنفسهم
لى كل لسان .

اللحن فى حجرة صغيرة على أنامل عازف ماهر .

ضبح بعد ذلك أغنية للبشر جميعا ..

أن أعترف أننى اسرفت فى أحلامى معك . حينما عاد

إلى ذلك الطفل الصغير الهارب منى وسط ضجيج الحياة وسخافات البشر.

هذا الطفل العاقل المجنون الصاخب المتمرد العاشق دائما لكل ما هو صادق وعميق .. وتركت هذا الطفل يتجول معك فى حدائق الأحلام وتصور الحياة معك على امتداد هذا الكون .. وحاول أن يعوض معك كل أيام الوحشة .. وترك نفسه لك تماما .. يحب بقلبك .. ويفكر بعقلك ويرى بعينيك .. ويمشى فى أى اتجاه تريدين .. ويحاول أن يحقق لك ومعك كل أحلامه القديمة .

وتبعك هذا الطفل فى كل مكان .. وعاش معك فى كل لحظة .. ورأى بعينيك كل شىء فى الحياة.. واكتفى بك عن كل سكان هذا الكون .

وبعد أن قطع معك كل هذا المشوار الطويل تقولين له الآن لقد أسرفت فى أحلامك.

يا سيدتى لا تغضبى منى إذا قلت لك إنك غير قادرة على الحب، وأن الحب عندك مثل أشياء كثيرة فى حياتنا الآن نشتريها ثم نبيعها .. تبهرنا أحيانا فنقترب منها .. ونزهدها أحيانا فنبتعد عنها .. هذا هو سلوك بعض الناس فى زماننا .. تبهرهم أضواء الشمعة من بعيد وفى آخر الليل يطفئون أنوارها .. ويشدهم عبير الزهرة من بعيد .. وفى نهاية الحفل ترى الأزهار شظايا فوق الموائد .

والحب شيء يختلف تماما عن هذه الشموع المظلمة ..
وهذه الأزهار الذابلة .. الحب إحساس عميق يحتوى الإنسان
ويزلزل أعماقه ويسيطر على كل شيء فيه .. ولكن الحب عندك
زجاجة عطر باريسية غالية الثمن تحبينها ليلة واحدة وبعدها
يمضى كل منكما فى طريق .. دون وداع أو حتى مصافحة !!
فالحب عندك ليس أكثر من زجاجة عطر يطوف عطرها على
وجهك الجميل وسرعان ما يرحل .

لست نادما على أحلامى معك فقد كانت أحلام إنسان
أحب.

ولست نادما على سنوات عمر جميل جمعنا .. فقد عشته
بكل ذرة فى كيانى .

ولكننى نادم أن تكون آخر صورة لامرأة أحببتها هى
صورتك التى أراها الآن محطمة فى قلبى .. أما أنا يا سيدتى
فسوف أبقى حالما حتى آخر لحظة من عمرى، فهذا قدر العاشقين
إذا أخلصوا .. وأنا منهم.

★ ★ ★

الحب .. بين التسامح والكبرياء

قالت : أيهما يسبق الآخر فى الحب .. الكبرياء .. أم التسامح .. وإذا تعارض الاثنان فى لحظة جفاء حادة.. فلمن يسمع الإنسان .. صوت كبريائه المجروح .. أم صوت قلبه المتسامح.

قلت : لا كبرياء فى الحب إذا كان كل طرف حريصاً على الآخر .. يقدر مشاعره .. ويحترم إحساسه .. ويدرك قيمته.. إن الحب أحيانا يجعلنا نحطم كل الشكليات التى تضع جسوراً فى العلاقات العادية بين الناس .. وربما كان الكبرياء واحدا من هذه الجسور، وليس معنى ذلك أن يتحول المحب إلى «ملطشة» لمن

يحب.. إن ذلك يعنى هوانا على النفس لا يقبله العقلاء مهما كانت مشاعرهم .

ولذلك فأنا لا أضع اعتبارات كثيرة لمن يسأل عن الآخر أكثر أو من يهتم بالآخر أكثر لأن ذلك يرتبط أحيانا بظروف كل شخص ووقته وحياته .. قد لا أسأل عن إنسان أحبه ، وهو يسكن كل دقيقة من زمنى .. لأن الظروف تمنعنى من ذلك .. وقد يتاح لى أن أشاركه كل أوقاته .. فليست هناك ثوابت فى هذه الأمور ، ولكن المهم فى ذلك كله هو الحرص والتواصل .. والمودة. وفى بعض الأحيان يساء فهم الإنسان فتتصور المرأة أنها بالدلال والمراوغة تكسب قلب الرجل .. وأنا أعتقد أن الحب السوى لا يحتاج لهذا كله.. إنه يحتاج للتعاطف والوضوح والنبل فى التعامل.

وقد يتصور الرجل أنه بالإهمال وعدم الرعاية والجفاء أحيانا يمكن أن يلهب مشاعر امرأة تحبه.. وهذا أيضا خطأ كبير.. قد يكون ذلك فى فترات المراهقة والصبيانية ، أما الرجل العاقل فهو يقدر مشاعر من يحب .

ولكن قضية الكبرياء قضية فى غاية الحساسية . إن بعض الناس يسىء فهم الأشياء ... فقد يتصور الرجل أن المرأة حينما تتنازل عن كبريائها حبا فيه فإن ذلك ضعف فى مكوناتها، ويحاول أن يستغل هذا الضعف.

وقد تثق المرأة فى مشاعر رجل يحبها لدرجة تتصور معها أنه سيقبل منها كل شيء حتى لو كانت الإهانة .. وهنا يمكن أن تهدم المعبد على كل ما فيه .. إن التنازل ليس بالضرورة هو الضعف .. والثقة لا يجب أبدًا أن تلغى حدود الاحترام والتقدير بين الناس فى الحب وغير الحب.

ولهذا يمكن جدا أن تهدأ أمواج الكبرياء زمنا طويلا لأن هناك مشاعر تحميها .. وقلوبًا تقدر قيمة الإحساس .. وفجأة تتحول هذه الأمواج الهادئة إلى إعصار مدمر حينما نكتشف سوء التقدير .. أو سوء الظن .. أو سوء المعاملة.

ولهذا فليست هناك قواعد ثابتة فى المشاعر الإنسانية .. قد أقبل اليوم شيئا .. ولا أقبله غدًا لأن الظروف والملابسات والمواقف اختلفت . وحينما تعصف بالحب رياح الجفاء يأخذ كل طرف جانبًا بعيدًا نسميه الكبرياء .. وهو منطقة تبدو بسيطة ، ولكنها فى غاية الحساسية .. وعند بعض الناس ربما فرط الإنسان فى حبه ولا يفرط فى كبريائه خاصة إذا وجد هذا الكبرياء ينزف أمامه.

أما الجزء الثانى وهو التسامح .. فهو أجمل ما فى الحب .. وهو يرتبط ببقاء هذا الحب واستمراره .. إننى أتسامح مع إنسان أحبنى .. ولكننى لا أتسامح مع إنسان حاول يوما أن يلعب

بمشاعرى لأسباب لا أعرفها .. والتسامح يمكن أن يذيب تلال الثلوج بين الناس ، ولكنه لا يداوى جراح الكبرياء.

وفى كل الحالات فأنا أفضل حتى وإن كانت النهايات مؤلمة أن يحاول كل طرف أن يبقى للآخر صورة طيبة .. لا أطلب صورة جميلة لأن ذلك يصبح صعبا مع النهايات الدامية .. ولكن يجب أن أحفظ للآخر وجها طيبا بداخلى ، وليس ذلك من أجله فقط .. ولكن من أجل نفسى وحتى لا أرى قلبى وقد أصبح كهفا مظلما لا ضوء فيه ولا حياة .. إننى أفضل أن أصنع بروازًا جميلاً أضع فيه آخر صورة لامرأة أحببتها حتى وإن كانت قد فقدت ملامحها الجميلة داخل نفسى .. أنا حريص على ذكرياتى لأنها عمرى حتى ولو باعها الآخرون بلا ثمن.

★ ★ ★

نحن وأخطاء الآخرين

يحاول الإنسان أحيانًا أن يجمل صورة إنسان أساء له يوما.. ربما كان حبيبا .. ربما كان صديقا .. ربما كان زميل عمل أو رفيق مهنة .. وتحاول بينك وبين نفسك أن تغير ملامح صورته المشوهة على امتداد سنوات العمر .. تحاول مثلا أن تبرر أخطاءه معك .. أو تعطيه عذرًا فيما فعل فتقول كان الطموح يسيطر عليه.. أو كانت حساباته خاطئة .. أو كان فهمه للناس محدودًا بحكم العمر والتجربة .. وتنجح محاولاتك .. وتتغير مشاعرك وتتلاشى من خيالك كل صور الماضى القبيح .. تجد مكانًا جديدًا فى قلبك لإنسان أساء إليك .. وتشعر أنك نسيت إساءته وغفرت له خطاياه .. ولم يبق داخلك إلا كل إحساس جميل .. تفعل هذا

وأنت مؤمن بأن الغفران أجمل كثيرًا من الحقد .. وأن الحب أبقى من الكراهية .. وأن النبل أعظم من السفه والترخص .. وتفتح صفحة جديدة تنسى بها كل ما فعل الآخرون .

وتكتشف الكارثة .. أن الذين أساءوا إليك فى البداية لديهم إصرار غريب أن يسيئوا لك ألف مرة وحتى نهاية العمر .. وأن الذين غرسوا السهام فى قلبك لديهم استعداد لأن يغرسوا فى نفس القلب ألف سهم جديد .. وتقف حائرًا مع نفسك وتتساءل .. أيهما كان أفضل ، ما فعلته أنا أم ما يفعله الناس عادة فى مثل هذه المواقف .. بألا تتوقع حبا من إنسان كرهك يوما .. ولا تتوقع شهامة من إنسان خذلك يوما ولا تتوقع من البخيل كرما ولا من الوضيع ترفعا .. ولا من القاتل إحساسا بالذنب .. هكذا يتصور الناس عادة .. ولكننى كنت دائما أقول إنه ليس هناك شر مطلق وليس هناك أيضا خير مطلق .. ولكن هناك أشياء تتغير .. وتتغير معها طباع الناس .. إن اللص الفقير يحلم بأن يجد ما يكفيه فيمتنع عن السرقة .. والإنسان الذى حرمته الحياة من الحب يمكن أن تختلف طباعه إذا وجد من يحبه .. والصفح والنسيان والغفران أجمل كثيرًا فى إيقاعها ككلمات .. وأثرها كسلوكيات .. وقيمتها كأفعال.

فإذا كنت قادرًا على الحب فلماذا أكره؟ وإذا كنت قادرًا

على العطاء فلماذا أبخل؟ وإذا كنت قادراً على نسيان خطايا الآخرين فلماذا أعيش بها وأظل أحمل عبئًا ثقيلاً على قلبى ؟

كنت أتخيل أن الناس يمكن أن تتغير .. وأن من كرهك يمكن جدًا أن يحبك خاصة إذا لم يكن هناك ما يبرر الكراهية .. واكتشفت أننى واهم وأن ما يقوله الناس هو الأسلم والأصدق .. فالثعبان لن يكون يوما قطا أليفا .. والكلب لن يكون أبدًا عصفوراً مغردًا .. والعقرب لن يكون فى يوم من الأيام نحلة تعطى الشهد أو فراشة تعطى الجمال .

اكتشفت أنه من الصعب جدًا أن يغير الزمن أساسيات السلوك فى البشر.. لأن الذى اعتاد أن يكون بخيلاً طوال حياته لا يمكن أن يصبح كريما بين يوم وليلة.. والذى أدمن القتل لايمكن أبدا أن يترك العصافير تلهو فى السماء وتغنى فى الحدائق.

من الصعب جدًا أن يصير الخفاش بلبلا يغنى فى ضوء النهار ، وإذا طلعت على الخفاش الشمس فإنه يبحث عن أقرب «خرابة» يختفى فيها .. وهناك خفافيش تحمل وجوها آدمية مهما حاولت أن تكون إنسانا معها فلن تفيد إنسانيتك .. إن فى أيدى هذه الخفافيش الآدمية سهاما جاهزة وفى عيونهم حقدًا أبديًا .. وفى أظافرهم بقايا من دماء الأبرياء .

فإذا حاولت أن تضع بدلًا من السهم زهرة .. وبدلا من

الحقد محبة وبدلا من الانتقام تسامحًا وغفرانًا .. إذا حاولت ذلك سوف تكتشف أن المحبة خذلتك .. وأن التسامح خدعك لأن الأيدى لم تتغير والوجوه هى نفس الوجوه والعيون التى اعتادت الكراهية لن تعرف أبدًا طريق الحب .

فإذا كان من الأفضل ألا تكره فمن الأفضل أيضًا ألا تحب هؤلاء ، وإذا كان التسامح مطلوبا .. فإن الحذر والخوف من الخفافيش مطلوب أكثر ، ولا تكن ساذجا مثلى حينما تصورت أن من أساء لى فى البداية يمكن أن يكون نبيلاً معى ونحن على أعتاب النهاية .. لأن ذلك وهم كبير .

* * *

كل سنة .. وأنت فى حياتى ..

مازلت أشعر أنك معى.. وأننا لم نفترق لحظة.. وأن الذى كان بيننا أصبح أقوى منك ومنى.. ومن كل الظروف القاسية التى جمعتنا وفرقتنا وعبثت بنا .. ولذلك قررت أن أحتفل بالعام الجديد وأنت معى.. ستقولين عاشقًا مجنونًا مازال يتمسك بتلك الخيوط الواهية التى بقيت بيننا .. ستقولين أيضًا: إنك إنسان حالم تستطيع أن تحول مستنقعات العالم إلى أنهار جارية.. وتستطيع أن ترسم ابتسامة وسط تلال الأحزان ولكنك سوف تفيق على الحقيقة القاسية؛ أنا هنا بعيدة وأنت هناك بعيد، وسوف نستقبل عامًا جديدًا وليس بين أوراقنا حلم واحد يمكن أن نقول معه سوف نلتقى يومًا .. ما بين أيدينا فراغ.. لا أستطيع أن

أعـدك بشيء.. لأننى مـا عـدت أملك من حـيـاتى أى شيء..
لا أستطيع أن أقول إننا سنلتقى بعد يوم أو عام أو أعوام ، فربما
لا نلتـقى أبدًا.. هل تعـرف معنى أن نموت ولا نرى بعـضنا مـرة
أخرى.. ورغم هذا قررت الليلة أن نحتفل بالعام الجديد معا..
رغم أننى لا أعرف تمامًا أين أنت الآن.. وأى بلاد الله يحتويك..
وفى أى مكان تسهرين.. لا أعرف أين يسير نجمى الهارب وفى أى
سماء يطوف وعلى أى مدار يمضى ؟

لا أدرى ما هو لون ثوبك الذى ترتدين.. ولا نوع العطر الذى
يلامس الآن وجهك الجميل.. ولا لون الشموع التى تحيط بك ؟

لا أعرف هل مازلت تجلسين بشموخك الواثق .. وهدوئك
الوقور .. لا أعرف أين أنت الليلة ؟

ولكننى قـررت أن نحـتـفل مـعًا بالعـام الجـديد .. ولأننى
لاأستطيع أن أودع العام بدونك أو أن أرى الليلة وجها غير وجهك
ولا أن أشم عطرًا غير عطرك .. قـررت أن نكون معًا .. وأتجاوز
حدود الزمان والمكان والبشر . لا أدرى أى مكان تختارين .. وعلى
أية مائدة تجلسين .. وأمام أى نهر سوف نختار الزمن الذى نودع
فيه العام الذى مضى ونستقبل العام الذى سيجىء .

سوف نطفئ معا شمعة وحيدة .. وسوف أشاهد عينيك
التى أحببتهما دائما وبريقهما ينساب كأنه نهر يتدفق فوق

الجبال.. سوف أسألك عن أخبارك بعدى ؟ ماذا فعلت بكِ الأيام.. وماذا أخذ منك عام مضى .. وبماذا تحلمين فى عام جديد؟ سوف أعرف منك كل الحكايات وكل القصص .. وسوف أسألك ماذا بقى منى عندك وماذا ضاع ؟ سوف أحاول أن أفتش عن كل الأماكن التى جمعتنا معًا وهل ما زلت تتذكرين أحلامنا فيها ؟ سوف أعرف منك كيف تسرب اليأس إلى نفوسنا .. وكيف استطعنا أن نترك حبنا يضيع فى سخافات الناس وحماقات الحياة .. سوف أحكى لك عن أحوالى .. كيف كان العمر ثقيلاً بعدك .. وكيف تراجعت حرارة النبض فى أيامى .. وسوف أقول لك كيف كان الوقت ثقيلا مملاً .. وكيف كان الليل طويلاً .. وكيف فقدت أحلامنا قدرتها على أن تقاوم عواصف اليأس ؟.

سوف أقول لك إننى مازلت أحبك وأن الذى حدث بيننا مجرد طيف عابر فرقنا بعض الوقت .. ولكن الذى بيننا أكبر من كل الظروف وأبقى من كل الأحداث وأطول من سنوات عمرنا القصير .. سوف أقول لك إن العيون ترى كل يوم وجوها جميلة ولكن القلب لا يفتح أبوابه إلا لوجه واحد .. وأنك كنت فى حياتى هذا الوجه الذى أطاح بجيوشى واستولى على حصونى وفرض على عمرى الوصاية .. سوف أقول لك إن الحياة أقصر من أن تضيع أمام قسوة الظروف وتحديات الحياة .. وأن الذى بيننا يستحق أن ندافع عنه .. ونحارب من أجله . فليس هناك شىء

جـمـيل بلا ثمن .. وليس هناك إحـسـاس صـادق بلا مـتـاعب .. وليس هناك حب بلا مـعـاناة .. سـوف أطفئ مـعك شـمـعـة .. وأضيء معك ألف شـمـعـة سـوف نودع عـامًا .. ونسـتقـبل عـامًا .وإن كنت أراك في كل الأعوام .

سوف أجلس على المائدة أنتظرك .. ولعلك تأتين.

★ ★ ★

الهارب من الميدان

لا ادرى ما الذى بقى فى عينىّ من وجه القمر الذى غابت أجمل الأشياء فيه وتوارى ضياؤه الحزين أمام سحابات الجفاء واللامبالاة .. ما الذى يبقى من وجه القمر فى ليلة شتوية حزينة تكدست فيها تلال السحب على عينى .. فصار القريب بعيدا .. وأصبح الضياء شعاعا هاربا لا أعرف أين استكان أو تلاشى.

ما الذى أغرانا بالرحيل خلف وجه القمر المسافر .. كنا نعلم يا قلبى انه أبعد من بعيد .. وكنا نعلم أنه رحلة سفر قاسية .. وكنا نعلم أنه حلم مستحيل .. ولكن مع السفر المضنى كان الإحساس بالأمان رغم كل جوانب الخوف والوحشة .. مع البعد

كان الحب يكفينا رغم أننا نطارد سرابا وسط صحراء قاحلة .. ومع الحلم المستحيل كان هناك إحساس عميق بأن الرحلة تستحق التعب .. وأن المشاعر تستحق أن نضحى فى سبيلها بكل شىء .. وقبل هذا كان هناك شعور ينمو ويكبر داخلنا يستحق أن نداقع عنه ونرعاه.

لم يكن الطريق سهلا .. ولم تكن الرحلة آمنة .. ورغم ذلك اخترنا أن نمضى معا .. لم يكن قرارى وحدى .. ولم يكن اختيارى وحدى .. ولكننا اخترنا معا .. وقررنا معا .. ومضينا فى الطريق معا .. لو كنت وحدى صاحب القرار لقلت لنفسى .. لقد فرضت الرحلة فرضا .. ولكن كل شىء بيننا كان واضحا صريحا لا خداع فيه ولا مناورة .. كانت خريطة رحلتنا واضحة فى كل شىء .. ولم نترك فيها شيئًا إلا وناقشناه معا .

ومضت رحلتنا خلف وجه القمر المسافر .. واخترنا لها أكثر من طريق ووضعنا أمامنا أكثر من احتمال .. ربما أسرفت أنا فى أحلامى .. لماذا لا تقل لى إننى أسرفت ؟، ربما تجاوزت فى رحلة خيالى .. لماذا لم تقل لى إننى تجاوزت ؟.. أكثر من هذا كان من الممكن أن تقول لى إننى أرفض الرحلة تماما، وعلينا أن نعود من حيث بدأنا .. ولكن كيف طاوعك قلبك يا رفيقى أن نمضى معا فى رحلتنا ثم تهرب منى فى منتصف الطريق ؟ كيف تنسحب من

الميدان وتتركنى وحدى وأراك من بعيد وأنت تسرع هاربا بينما وقفت أنا أتلقى السهام.

بأى مبرر قبلت هذا لنفسك ورضيته لى ؟. وكيف طاوعك قلبك أن تلقى سلاحك الذى تصورت أنه يحمينى فإذا أنا وحدى فى العراء ؟. وكيف رضيت أن تمضى بعيدا وأنت ترى السهام تحاصرنى من كل اتجاه ؟

كان بوسعك أن تهمس فى أذنى بكلمة واحدة تقول «قررت الانسحاب» حتى أعرف أين أكون ؟ وما هو مصيرى فى هذا الميدان الصاخب؟. ولكنك انسحبت فى ليلة شتوية مظلمة ونظرت خلفى فوجدت ظلا هاربا يجرى مسرعا ولا يحاول أن ينظر للوراء.

ومضيت يا رفيق الرحلة عائداً إلى الأرض وتركتنى أقاوم الرياح والعواصف فى رحلتنا معا إلى وجه القمر .. لا أعتقد أنك قد خدعتنى فأنا لا أتصور أبداً فيك الخداع .. ولا أعتقد أنك كذبت علىّ .. فمازلت حتى الآن أصدق كل شىء فيك حتى ولو كذبتنى ظنونى .. ولا أعتقد أنك كنت تحاول أن تعيش معى وهما كاذبًا أو تضع معى حلما واهيا.. فأنا لا أصدق أبدا أن تكون هذه أخلاق من أحببت.

ومازلت يا رفيقى أقف فى منتصف الطريق.. لا أنا عدت

إلى الأرض التى بدأنا منها يوما رحلتنا.. ولا عدت أرى وجه القمر الذى حلمنا معـا أن نصل إليه.. ولا أدرى أين أنت يا رفيقى الهارب؟ وما عنوان الأرض التى اخترت أن تعيش عليها بعد أن انسحبت من الميدان ومضيت هاربا.

★ ★ ★

لا يجوز الحكم على متهم غائب

جاءت تسألنى : هل تتصور أن تنتهى قصة حب من طرف واحد .. وهل من حق إنسان أن يصدر قرارا بينه وبين نفسه باغتيال هذا الحب .. أليس الحب شركة بين شخصين .. ألم يبدأ هذا الحب باتفاق بينهما .. كيف يحق لأحد الأطراف أن ينسحب فى هدوء ويترك للآخر كل الحزن والدهشة والتساؤل ..؟ أحببت إنسانا أربع سنوات كاملة .. تسلل فيها إلى كل لحظة فى عمرى واحتوى حياتى كلها بمشاعره العميقة .. وحلمنا معا .. وانكسرنا .. وانتصرنا أحيانا لكننا بقينا فى كل الأحوال نقاوم ظروفنا الصعبة .. وفى آخر مرة رأيته فيها كنت فى قمة سعادتى وأنا أودعه .. وفجأة انتهى كل شىء ولم أعد أعرف له طريقا ..

حاولت كثيرا أن أستعيده ولكننى فشلت .. ماذا تقول عن مثل هذا الموقف الغريب؟

قلت : هو موقف غريب حقا .. ولكن أخشى أن أندفع معك فى تحليلاتك لموقف هذا الحبيب الهارب. إن نبل السلوك والمواقف يتطلب منه أن ينهى الحكاية معك كما بدأها من سنين .. ولكننى لا أعرف ظروفه التى يعيشها الآن .. أنا أقدر حجم متاعبك ومعاناتك ولكن الأمانة تقتضى أن نترك مساحة للظروف .. أنا لا أستطيع أن أدين رجلا لم يدافع عن نفسه لأن الأحكام الغيابية فى الحب جريمة .. لا أستطيع أن أحكم على إنسان غيابيا .. لابد أن أسمعه وأعرف رأيه حتى وإن كان قد قرر الرحيل .. فى بعض الأحيان نرتكب أخطاء كثيرة بسبب هواجسنا وربما انتهت أشياء جميلة فى حياة الإنسان لأنه استمع لظنونه.

قالت : ولكننى لم أترك سبيلا لم ألجأ إليه لكى أعرف أى شىء عنه . قلت : بعض الناس يفضل مثل هذه النهايات .. أن يقطع اللحن ولا يكمله حتى لو بقى اللحن مبتورًا .. أن يترك الشجرة حتى تجف وتموت واقفة .. أن يترك العصفور فى قفصه وحيدا حتى يجف ريشه وينتهى .. وأنا لا أحب هذا الأسلوب فى الحياة لأن فيه الكثير من القسوة .. أنا أفضل أن أقطع الشجرة ولا أتركها تموت أمامى عطشا وتتساقط أوراقها ورقة ورقة .. من

الأفضل أيضا الا أترك العصفور يموت حزنا فى قفصه .. لماذا لا أتركه يحلق فى الفضاء دون أن أقتلع ريشه .. أو ألقى بألوانه الجميلة وسط النيران .. إذا كنت قد سئمت غناء عصفورى السجين فربما أطرب هذا الفضاء إنسانا غيرى .. ولا داعى أبدا لأن نتخلص من عصفور أسعدنا يوما حتى وإن سئمنا غناءه .. وبعض الناس يحبون الشىء مرة واحدة .. والبعض الآخر إذا أحب شيئا فإنه يحرص عليه .. وما يحدث فى الأشياء الصغيرة يحدث فى الأشياء الكبيرة .. بعض الناس يحب نوعا واحدا من العطر يستخدمه فترات طويلة .. وربما احتاج بعض الوقت حتى يستخدم عطرًا جديدًا .. وهناك من يحب استكشاف الأشياء بحيث يبحث كل يوم عن عطر جديد وحكاية جديدة .. وانا لا أريد أن أظلم حبيبك الهارب لأننى لا اعرف تماما شخصيته ومكوناته .. هل أراد أن يترك لك جرحا وهو يقصد ذلك حتى تبقى أصداء حكايته فى حياتك أطول فترة من الزمن .. هل أراد أن ينسحب وهو يعتقد ان ذلك أفضل من المواجهة والحديث عن النهاية المحتومة ؟.

هل حاول أن يقول لك شيئا وفشل ؟.. تقولين إنك سألت وبحثت عنه .. وما يدريك أن السؤال وصل .. وانه علم بكل محاولات بحثك عنه ؟ .. ربما لا يصله شىء من هذا كله .

قالت : كان لنا بعض الأصدقاء الذين عشنا معهم اجمل

لحظات عمرنا .. حتى هؤلاء لم أسمع لهم خبرا .. هل هناك جحود أكثر من هذا ؟.. هل يمكن أن تتقطع الأشياء بين الناس بهذه البساطة وبهذه السرعة .. وبهذه القسوة ؟، كان آباؤنا يقولون إن هناك علاقة أسمها «العيش والملح» أى أن الناس أكلوا عيشا وملحا مع بعضهم .. وهذا يستوجب الوفاء .. ولكن زماننا الغريب يشهد كل ألوان الطعام حيث الموائد الممتدة بعرض الكون.. وحيث الحفلات الصاخبة وتبحث وسط هذا الضجيج الصاخب عن شىء اسمه الوفاء.. والعشرة.. فلا تجد غير الألم.. كان العيش والملح يوما وثيقة يحترمها الناس فى علاقاتهم الإنسانية.. ولكن الحب بكل سلطانه لا يجد اليوم أحدا يحترمه.. هل هناك هوان أكثر من هذا .

★ ★ ★

ما أصعب أن تنتظر حبيبًا

أسوأ الأشياء فى الدنيا هو الانتظار .. أن تنتظر حلما .. أو ردًا أو جوابًا عن سؤال .. أن تنتظر حبيبا وأنت تعتقد أنه ربما عاد يوما .

أن تنتظر حلما سقط منك فى زحمة الحياة.. وما زال يراودك بريقه القديم .

ولقد عشت حياتى كلها لا أحب الانتظار .. لأن الانتظار يعنى أن أقدارك وحياتك وظروفك فى يد شخص آخر .. وأنا لا أحب أن أضع مصير حياتى فى أيدى الآخرين مهما كانت مكانتهم عندى .

من الصعب أن تنتظر ترقية من رئيسك فى العمل لأن ذلك قد يعنى تنازلات كثيرة قد لا ترضاها لنفسك وتفرضها عليك الظروف.. ومن الأصعب عليك أن تنتظر من أحد شيئا وأنت تشعر فى قرارة نفسك أن الكبرياء يمنعك من هذا الانتظار .

ومن أصعب الأشياء على الإنسان أن ينتظر حلما خذله .. وهو لا يستطيع استعادته .. إنه يشعر أن الحلم يوشك أن يموت فى أعماقه وهو عاجز أن يفعل له شيئا .. إنه يترنح فى لحظات النهاية وهو لا يملك غير الدموع .

وما أصعب أن تنتظر حبيبا.

فى بعض الأحيان يكون انتظار الحبيب أجمل شىء فى الحياة لأنك تعرف متى سيعود .. وتتحول لحظات الانتظار إلى سيمفونية جميلة من الشوق واللهفة والحنين .. ثم تصل إلى ذروتها والأيدى تبحث عن الأيدى والعيون تحتضن نظرات العيون ، وما بينهما أنهار من الشوق الجارف والحنين الصاخب المجنون .

وفى أحيان أخرى يتحول الانتظار إلى كابوس طويل .. لأن الذى تنتظره اختار طريقا غير طريقك ورضى لك ما لا ترضاه أنت لنفسك وهانت عليه كل الأشياء .

وما أطول ساعات الانتظار وأنت تجلس وحيدًا تحدق أحيانا فى وجهك ، وأحيانا أخرى تنظر للهاتف فى عتاب.

وتحـــاول أن تبـسمـث فى نفـــسك الأمل الواهـن الذى يذوب أمامك كأنه شمعة حزينة تعيش لحظاتها الأخيرة قبل أن يطويها الظلام.

وتحاول أن تستعيد ذكريات الأمس .. وتراها حولك اشباحا صامتة لا تتكلم .. إنها تماثيل من الشمع تحولت إلى هياكل اثرية لأيام جميلة.

وتقـرر بينك وبين نفسك الا تنتظر أحـدًا .. وتقـول لنفـسك لمَ أبقيه .. وما أبقى عليَّ .. ثم تتفجر فى داخلك شلالات الحنين وتجد نفسك مرة أخرى تعيد قصة الانتظار.

وفى أحـيـان أخـرى تطفـو على الأفق سـحـابات من اليـأس تغطى كل شىء حـولك .. وتجـد من يقـول لك : لقـد مـضى كل شىء.. ولم يبق أى شىء يمكن ان تعيد معه هذا الماضى الجميل.

وتحـاول أن تبـعـد عن عـينيك هـذه الأشـبـاح المخـيـفـة .. وتفحص عينيك مرة أخرى وأنت تستعيد صورة آخر لقاء .. وأول لقاء.

وكيف كانت البداية زهورًا جميلة .. وكيف كانت النهاية سهاما دامية .. وما بين لون الزهور الحمراء الزاهية .. ولون الدماء التى حملتها السهام القاسية .. تجلس وحيدا تنتظر .

بعض الناس يقولون .. لا تنتظر حبيبا باع .

وبعضهم يقول .. ربما اعاده حنينه..

وهناك من يقول.. العمر أقصر من أن نضيعه على الأطلال.

وأقول لنفسى شيئًا وأفعل غيره.

بالأمس عـاهدنـى قلبى أن نحـاول مـعـا النسـيـان .. وكلمـا انطلق صوت الهاتف انتفض قلبى بين جوانحى فى لحظة انتظار لا أجد لها نهاية.

★ ★ ★

يا صديقى .. لست وحيداً

لا تحزن كثيراً إذا وجدت نفسك وحيداً فى الطريق ..
لا تحزن إذا وجدت سحابة سوداء داكنة تبدد صفاء أيامك وتغوص بك فى بحر من الأحزان .. لا تحزن إذا تخلى عنك حلم.. أو رفيق .. أو حبيب .. او صديق عمر.

إذا حاصرتك ليلة شتوية باردة .. واقتحم أيامك مارد من اليأس ..فلا تنس أن لكل شىء فى الحياة وجهين.

لا يمكن أن تبقى وحيداً .. سوف يخرج من تلال هذا الحزن الطويل وجه جميل بشوش يبدد وحشة الأيام .. وسوف تظهر نسمة باردة جميلة تنعش زمانك الذى اكتوى بنار

الصحراء.. وسوف يطل خلف الأفق ضوء جديد يزيل تلك السحابات السوداء التى اقتحمت سنى عمرك وأنت أحوج ما تكون لقلب صغير يؤنس أيامك.

لا تقلق يا سيدى إذا تغيرت ملامح الزمن .. وساءت وجوه الحياة وتبدلت أخلاق الناس واختلت موازين البشر .. لأن الأساس فى الحياة هو الجمال .. وليس القبح .. والأساس فى الأشياء هو التوازن وليس الخلل .. والأساس فى المشاعر هو الحب وليس الكراهية .. والنبل وليس الخداع.

فإذا تغيرت أحوال النشرة الإنسانية.. وأصبح الجو غيما.. وتكدست السماء بالسحب.. واختفى وجه الشمس.. وغابت حرارة الكون.. فلا تنزعج.. سوف يعود الجو إلى حالته مرة أخرى.

سوف تظهر الشمس وتضىء كل شىء .. وتعيد الحياة.. سوف تنبت أشجار جديدة فى تلك المساحات الصفراء التى أصابها العطب .. وتخرج من هذه الأرض التى ظننتها أجدبت زهورا تحمل العطر والجمال والسعادة..

إذا كان هناك رفيق تخلى عنك فسوف تلتقى برفيق آخر وإذا كان هناك صديق خدعك فى منتصف رحلة العمر .. فهناك صديق آخر سوف يحفظك إلى آخر العمر .

إذا كانت هناك أياد طاوعت نفسها واغتالت أجمل المشاعر

فيك فهناك أياد أخرى سوف تلملم جراحك وتعيد للقلب الكسير نبضه الجميل ..

إذا كانت هناك أشواك أدمت أقدامك في رحلة حب مجنونة ، فهناك زهور سوف تستقبل أيامك في مظاهرة حب كبيرة..

لا تحزن لشيء مضى .. لأن القادم أجمل..

ولا تحزن على جرح أصابك .. لأن الزمن والأيام كفيلة بأن تداوى كل الجراح مهما كانت عميقة..

في نفس الطريق الذى سلكته وحيداً ستجد هناك قلوباً وحيدة مثلك.. وسوف تجد أيضاً دماء ضحايا خدعتهم الأيام والمشاعر .. سوف تكتشف في هذا الطريق المظلم لؤلؤة جديدة داستها أقدام عابثة كما داستك يوما قلوب لم تعرف الرحمة .. سوف تمتزج دماء ضحايا هذا الزمن العابث المجنون.. وسوف تنبت منها أشجار وظلال.. وسوف تخرج منها وجوه مضيئة تعطى للحياة جمالا.. وللبشر إيمانا عميقا بقيمة الأشياء.. ها هى لؤلؤة جميلة تطل من بعيد في آخر الدرب الموحش .. ضع جراحك على جراحها .. واخلط دماءك بدمائها .. وافتح عينيك وحاول أن ترى الأفق من جديد ..

لا يمكن أن يعيش الإنسان سجين ذكرى لا يجد منها غير

الألم .. ولا يمكن أن يبقى سجين إحساس تخلى عنه.. ولا يمكن أن يظل وحيدًا في الطريق وحوله أكثر من رفيق.. يخطئ الإنسان إذا تصور أن الحياة تنتهي أمام كبوة جواد أو خطيئة قلب.. أو قصة حب عابثة.. افتح عينيك يا صديقي لضوء الشمس.. وسوف تكتشف أنك لست وحيدًا..

* * *

مساجين هذا الزمان

قالت : لا أنت تسمعنى .. ولا انا اسمعك .. أنت ا
وانا لا اسمع . وانا اصرخ وانت لا تسمع .. وهذه ما
المساجين فى هذا العالم .. أنت تعيش فى سجنك بعيداً .
اعيش بين القضبان .. ورغم اننا نصرخ ونتألم ونعانى ..
ليس هناك ما يسمعنا .. إن حارس بوابة السجن لايس
وصاحب السجن لا يسمع .. والسجان أدمن السكوت لأنه لا
شيئًا .. ولا يعرف شيئًا .

ولأننا لم نسمع .. فلم نعرف .. ولأننا لم نعرف ا
هواجسنا تاكل كل ما هو جميل من ذكرياتنا .. ولأننا است

ذكرياتنا .. زار الجحود قلوبنا .. وبدأت عواصف القسوة تتسلل داخلنا وتعصف بمشاعرنا .. وما بين الجحود .. والقسوة ذابت أشياء كثيرة بيننا . لم تحاول أنت أن تعرف .. ولم يكن بيدى أن اعرفك شيئًا .. وما بين غياب الحقيقة وإجهاض الحلم سقطنا معاً .. وليس هذا ذنبى .. ولا أعتقد أنه ذنبك ولكنها الظروف القاسية التى تصدر علينا أحكامًا بالإعدام ، رغم أننا لم نرتكب جريمة .. ولم نقف أمام محكمة .. ولم نقرأ عريضة اتهام .. ولم يترافع أحد عنا .. إننا ضحايا من غير ذنب .

والسبب فى ذلك لا أنا ولاأنت .. ولكنه السجن الكبير الذى يحتوينا جميعاً . وتحت سقف هذا السجن تجد لغات كثيرة وأجناسًا متعددة .. ووجوهاً مختلفة لأن الظلم أكثر اللغات انتشاراً فى العالم .. وهو لا يحتاج إلى لغة واحدة لكى نفهمها .. ولكنه الشىء الوحيد الذى قد نختلف فى أسلوب ممارسته .. ولكننا لا نختلف أبدًا فى معرفتنا به .

أنا وأنت من بين آلاف الضحايا الذين ماتوا وراء القضبان.. والموت لا يعنى فقط خروج الروح من الجسد .. ولكن هناك أشكالاً أخرى من الموت .

حينما أفقد القدرة على أن أواجه الظلم .. فهذا موت .. وحينما أجد نفسى وراء القضبان وليس من حقى أن أصرخ ..

فهذا موت .. وحينما يجد الإنسان نفسه مشطورًا إلى نصفين فهذا موت.

إن للموت أشكالاً وألوانًا كثيرة .. وحينما أصرخ ولا تسمعنى .. أو تصرخ أنت ولا أسمعك فهذا يعنى أننا نموت ببطء شديد .. وهذا ما حدث معنا .. سجينان فى زمن استباح كل شىء .. ولا يستطيع أحد منهما أن يدق أبواب سجنه أو يبعث كلمة يطلب فيها النجدة .. أو يشكو إلى أحد لأن السجن يحتوى الجميع . ولأن القضبان لا تترك نافذة أو طريقاً للهروب .

والسجون تعلمنا الصمت.. وتفقدنا القدرة على الإحساس.. فليس للوقت حساب .. وليس للعمر حساب .

إننا نقضى أياماً طويلة لانتكلم .. وندمن الصمت حتى نفقد القدرة على الكلام .. وحينما يعجز الإنسان عن الكلام فإنه يفقد تواصله مع الآخرين .. وحينما نفقد هذا التواصل تصبح الهواجس والظنون والأوهام غذاء أرواحنا وقلوبنا .. ومع الصمت وعدم التواصل مع الناس وفقدان الرغبة فى الكلام تتراجع درجة الإحساس لأننا لا نرى أحداً ولانسمع أحداً فمن أين تجىء المشاعر إذا كنا نقف وأمامنا جدار .

ولذا لابد أن نعترف أننا أخطأنا فى حق بعضنا البعض ولكن الشىء الوحيد الذى يمكن أن يواسينا فى هذه المحنة أننا لم

نكن نعلم ، وأن صراخنا لم يتجاوز حدود القضبان التى تحيط بنا .. وأن خيوطا كثيرة تقطعت بيننا بأيدى الآخرين واكتشفنا أننا لو كنا أحراراً طلقاء ما تجمعت على عيوننا كل هذه السحب السوداء .. وما تركنا أنفسنا للهواجس والظنون .وأن قصور الأوهام التى عشنا فيها كانت سجوناً أخرى .. وكأننا لم نكتف بسجن واحد فى حياتنا فجعلنا أوهامنا سجناً آخر .

كان من الممكن أن ندرك أن المساجين قوم مغلوبون على أمرهم وليس من حقهم أن يعيشوا لحظة حب حتى ولو كانت داخل القضبان .ولهذا يجب أن يتحرر الإنسان أولاً من سجنه حتى يكون قادراً على أن يعيش الحب دون خوف من السجان . ولا يجتمع الحب والسجان فى زمن واحد .

★ ★ ★

بين الحنان .. والحنين .

قالت : أيهما أجمل .. الحنان .. أم الحنين ؟

قلت : رغم التقارب الشديد فى نطق الكلمتين إلا أن الفارق بينهما كبير جداً .. إن المسافة بينهما بعيدة .. فالحنان يدخل فى دائرة الرحمة والحب والإحساس العميق .. والحنين يدخل فى منطقة الشوق .. ورغم المسافة البعيدة بينهما .. إلا أن الحنين هو الوجه الآخر للحنان .. لأننا عادة نشتاق ونحن لمشاعرنا الجميلة.. وأجمل مافى مشاعر الحب الحنان .. وأجمل مايبقى من الحب الحنين .

فالبداية هى الحنان .. والذى يبقى منه أحياناً هو الحنين .

والحنان إحساس جميل وأجمل ما فيه أنه بعيد عن الأنانية خاصة أنانية الحب .. ومساحة الحنان كبيرة وعريضة وشاملة .. تبدأ بحنان الأم وتنتهى بحنان الحبيبة .

وقد نجد الحب ولا نجد الحنان لأنه منطقة أكبر بكثير من الحب .. وفى الحنان نجد الحب .. ولكننا أحياناً لا نجد الحنان فى الحب .. فالحب كائن أنانى والحنان لا يعرف الأنانية .

وإذا كان الحنان هو أجمل ما فى الحب .. فإن الحنين هو أجمل ما فى الأشواق. والحنان راهب فى مملكة الحب .. والحنين راهب فى مملكة الذكرى .

وفى بعض الأحيان تكون الذكرى أجمل ما بقى من الحب .. وفى أحيان أخرى يكون الحنان آخر ما بقى لنا من الحب .

والحنان يحتاج إلى تركيبة إنسانية خاصة جداً .. إنه أقرب المشاعر إلى دائرة العطاء.. وهناك بعض الناس يعطون بلا مقابل.. وهناك من يعطى بمقابل. وهناك من لا يعرف لغة العطاء.

وقد يكون الإنسان عاشقًا كبيرًا ولا يعرف للعطاء طريقاً .. لأنه عاشق أنانى .. يحبُ نفسه فى عيون الآخرين .. وقد يكون العطاء أجمل وأعمق مقاييس الحب .. وهو الحب الذى لا يعرف لغة الحسابات والأرقام وماذا بقى وماذا ضاع .

والحنين رافد عميق من روافد الذكرى.. وهو أرقها إحساسًا

وأكثرها شفافية.. وفى الذكرى روافد كثيرة.. منها الأشواق.. ومنها التذكار.. ومنها الحنين.. وهو أعمق مشاعر الذكرى .

إننا عادة نتذكر الأشياء.. ثم نشتاق إليها.. ثم تعصف بنا رياح الحنين.. ورغم أنها تشبه النسمة.. إلا أنها عاصفة.. ورغم أنها تزورنا على استحياء.. إلا أنها تقلب موازين الأشياء.. ورغم أننا لانعرف لها ميعاداً إلا أنها قادرة على اقتحام أيامنا فى كل الأحوال والظروف.

ولكن الحنين يعنى أن هناك إحساساً عميقاً تسلط علينا وهو أكبر من التذكار وأعمق من الأشواق .

وقد نتذكر أشياء تسعدنا وربما نتذكر أشياء تشقينا .

وقد نشتاق لشىء يؤلمنا .

ولكننا لا نحن أبداً إلا لشىء أسعدنا . لأن الحنين يعنى أننا نتمنى لو عشنا اللحظة مرة أخرى .. ولا أعتقد أن الإنسان يمكن أن يحن لساعات الألم .. قد يتذكرها ..وقد تخطر على باله ولكنه لا يحن إليها.

ولهذا فإن الحنين يرتبط عادة بكل ما هو جميل فى ذكرياتنا.

قالت : وماذا تحب أنت .. الحنين أم الحنان ؟

قلت : عندى يقين أن الحنان امـــــرأة .. وأن المرأة بدون الحنان تفقد أشياء كثيرة .. لأن الحنان هو منبع الأمومة .. وأجمل مافى الأمومة الرحمة .. لأنها عطاء بلا حساب .. وبلا مقابل .

وكلما اقتربت المرأة من دائرة الرحمة اقتربت من دائرة الحنان .

وكلما اقتربت من دائرة الحنان عرفت طريقها للعطاء .

أما الحنين فهو أحياناً يرهقنى خاصة إذا كنت تنادى ولا يسمعك أحد .. وتحملك رياح الحنين إلى بلاد بعيدة لم تترك لك غير الوحشة .. الحنين إحساس جميل إذا كان فيه بعض الأمل أما الحنين اليائس فلا أمل فيه .

★ ★ ★

لا تترك لمن أحبك جرحًا

سألنى صديقى : ماذا تقول عن امراة أحببتها .. وملكت كل شىء فى حياتى .. وبلا أية مقدمات .. وجدتها تتسلل من حياتي، وفتحت عينى فى الصباح لأكتشف أن العصفور الجميل قد ترك العش ومضى .

الشىء المؤلم أنه لم يترك خلفه شيئًا .. لم يقل لماذا رحل .. وأين ذهب .. وما هى البلاد التى استقر فيها؟

فهل هذا يليق بالعصفورالذى أسكنته قلبى ؟

قلت: فى حياتى دائمًا أحرص على شيئين ألا أترك لمن أحبنى جرحاً .. فهو لا يستحق ذلك منى .. وألا أحرص على من

باعنى مهما كانت درجة عذابى من أجله .. ومهما كانت درجة الحب الذى أحمله له .. والشىء الأول أننى اتمنى دائماً من كل إنسان يحب أن يكون صريحاً مع من يحب . وإذا لم نكن صرحاء مع أحبابنا فمتى تكون الصراحة ؟. من حق إنسان منحنى قلبه الا اخدعه أو اضلله ، أواتخلى عنه فجأة ، كأنه اصبح إنساناً غريباً لا اعرفه.. ولا بد أن أكون صادقًا معه حتى آخر لحظة . حتى لو وصل حد الصراحة إلى الاعتراف بأن ما بيننا قد مات.. إن ذلك أفضل بكثير من أن اتسلل فى الليل فجأة واترك العش خالياً يبكى على من كانوا فيه .

وحينما تصل بنا الأحوال إلى أن تتساوى الأمور بحيث لا يشعر الإنسان بينه وبين نفسه أنه قد جرح من أحب .. فهنا قد يصل الأمر إلى درجة من الشك فى حقيقة هذا الحب .. حينما لااشعر بأننى قد اسأت لإنسان أحبنى فهذا يعنى أنا الحب لم يكن له وجود فى الأصل ، وانه كان وهماً جميلاً طاف فى خيالنا ثم انتهى .

كيف أنام واغمض عينى وانا أعلم أننى أسأت لإنسان كل ذنبه أنه احبنى ؟ . كيف يرتاح ضميرى ، وانا أطعن إنساناً فى اعز ما يملك وهو مشاعره ؟ . كيف اتسلل فى الليل تاركا كل شىء خلفى دون استئذان أو إشارة أو كلمة وداع ؟ هل يعقل أن

أكون ضيفا على أحد وأنام فى بيته ، وأتسلل فى الليل خارج البيت دون شكر أهله أو حتى إخبارهم برحيلى .

فإذا كان هذا خطأ فى الضيافة فهوجريمة فى الحب .. أن أتسلل من قلب عشت فيه زماناً ولا أفكر فى أن أودع أصحابه .. الشىء الثانى الذى أحرص عليه أن من باعنى لا يستحق أن أشتريه .. خاصة إذا كانت النهاية مؤلمة .. وجارحة .

لا يمكن أن تتساوى امرأة تركت فى عمرى بساتين ورد .. وأخرى تركت فى قلبى سهامًا لا أعرف كيف أداويها .

ولا يمكن أن تتساوى ذكرى جميلة لساعة وداع حارة .. مع ذكرى امرأة تسللت من قلبى دون وداع ولم تترك خلفها ورقة صغيرة تودعنى فيها .

لا يمكن أن تتساوى ليلة شتوية عاصفة حاصرتنى فيها الرياح مع ليلة خريفية جميلة تسللت فيها نسمات الخريف إلى كل جزء فى كيانى .

الفرق بين الناس والناس ليس فى المناصب والألقاب أو الأصول أو الأموال أو النسب .. الفرق بين إنسان وإنسان يتمثل فى شىء بسيط هو الإحساس الذى يجعلنا نشعر بقيمة البشر ، فيتجسد ذلك فى طريقة تعاملنا معهم .. وأنا أتصور أن من حق كل إنسان أن يتصرف كما يحب ، ولكن بشرط واحد ألا يكون ذلك على حساب الآخرين .

من حـقـى أن أسـقـط إنسـانـاً من حـيـاتـى.. ولكـن دون أن أجـرحـه.. من حـقـى أن ابنى بيتـاً جـديداً .. ولكن بشـرط الا اهدم بيوت الآخرين .

من حقـى أن أتسلل من بيت استضافنى .. ولكن بشـرط أن أستأذن أصحابه أو على الأقل أودعهم .

من حقـى أن أنسـى من احبنى وأطوى صفحته مثل الجـرائد اليومية ، ولكن يجب أن تبقى بيننا خيوط من الود تجعلنى أحن إليه وأذكره ولا ألعن اليوم الذى عرفته فيه .

نصيـحـتى إلى كل من أحب أو يحب أو سيـحـب .. أرجـوك يا صـديقـى ألا تكون أنانيـاً وأنت تغادر السفينة الغـارقـة وتهـرب منهـا وحـدك .. على الأقل لا تبـخل على من شـاركوك الرحـلة بأن تقول لهم إن السفينة غـرقت فسـوف يذكرونك دائمًا بالخـيـر لأنك كنت أمينا معهم ، ولن يضيرك ابداً أن تصافحهم ، وكل منكم يلقى بنفسه بين أمواج البـحـار .. فلا أحد منكم يعرف من منكم سوف يصل للشطآن آمنا ومن سوف تبتلعه الأمواج .

★ ★ ★

فلأعترف .. أنى قتلت حبيبى !!

قال لى صديقى الذى أحترمه وأحبه ؟ ما الذى يغرى امرأة أن تسدد سهامها إلى قلب رجل أحبها وترحل .. لماذا يحب الإنسان أحياناً أن يرى على يديه دماء من أحبوه ؟ . هل هو نوع من الانتقام الغامض ؟ . هل يلجأ الإنسان أحياناً إلى تحميل شخص ما خطيئة شخص آخر ؟. هل هى رغبة فى القتل بلا سبب ؟ . ماذا تقول عن امرأة أحببتها بكل رعشة فى كيانى ، وإغمدت فى قلبى سكيناً ومضت ؟

قلت: لا أعتقد أن هذه المرأة أحبتك .. ربما تخيلت أنت بخيال العاشق فيك أنها أحبتك .. ولكننى لا أتصور امرأة تكون بهذه القسوة مع إنسان أحبها.

كان بوسعك أن تكتشف ذلك من البداية لكى تدرك أنك تمضى فى الطريق الخطأ .. وأن حبيبتك التى كنت على استعداد لأن تبيع من أجلها كل شيء قد باعتك للحزن بلا مقابل .

وإذا كانت هذه الحبيبة ينقصها الحب فإن أخطر ما فيها أنها لا تعرف الرحمة .. والرحمة إحساس جميل جداً يعطى للإنسان جلالاً وعمقاً وإنسانية .. إن الرحمة أجمل كثيراً من الحب .. وهى أكبر من الحب .. والذى لا يعرف الرحمة لا يعرف الحب .. فالحب أحد أبواب الرحمة .. وهذه الحبيبة التى تخلت عنك بلا سبب وتركتك بلا استئذان ، كان ينقصها بالفعل أن تحبك .. وينقصها قبل الحب أن تعرف شيئًا اسمه الرحمة .

وأنا لا أعتقد أنك خسرت نفسك فى هذه القصة .. فقد وصلت معها إلى أبعد حدود العطاء والتضحية .. ووصلت مع إحساسك إلى آخر نقطة يمكن أن يصل إليها قلب إنسان .

ما الذى كان عندك أكثر من هذا لكى تقدمه قربانًا لهذا الحب اليائس .. لا شيء يا صديقى .

عاهدت ووفيت .. وقلت وصدقت ..وأعطيت وما بخلت وكنت شهماً نبيلاًوراقياً فى سلوكك وتصرفاتك ، ليس هناك خطأ واحد يمكن أن يعطيها مبررا لما فعلت غير أنها لم تحبك أبداً .

حينما تحب المرأة بصدق لا يمكن أن تجرح إصبع إنسان

أحبها .. فما بالك بمن حملت سهما ومارست هوايتها فى الصيد،، واسكنت السهم فى قلب من أحبها .

بعض الناس يدركون خطورة ما يفعلون .. و بعض الناس تغرقهم الحياة فى مفاتنها فلا يذكرون ما يفعلون ، وبعض الناس يعلمون تماماً ما يفعلون.. ولهذا يختلف موقف القاضى وهو يحكم على متهم فى جريمة قتل.. هناك قتل بسابق الإصرار والترصد.. وهناك قتل خطأ .. وهناك قتل بالإهمال .

وانا ارى أن حبيبتك قد ارتكبت الجريمة الأولى .. فهى إنسانة مثقفة راقية لا يمكن أن تعرف الإهمال أو الخطأ ، ولهذا فهى تدرك تماماً مافعلت .

لا أستطيع ان امنعك من ان تحزن.. ولا أطلب منك الا تتألم فأنا لا أملك هذا يا سيدى.. ولكننى أريد منك فقط أن ترحم نفسك ولا تتركها لهذا الكم المخيف من الألم ، لقد كان حظك ان تأتى سحابة رملية مدمرة لكى تغطى على كل الزهور الشتوية الجميلة التى زرعتها ، وكان حظك أن تأتى عاصفة مجنونة لكى تقتلع كل أشجار البرتقال التى رعيتها .. وكان حظك ان يأتى صقيع مدمر فيقتل كل العصافير التى ملأت لياليك الحاناً .. إننى ياصديقى أشفق عليك وأنت الذى كنت تداوى جروحنا جميعًا ، ولانملك الآن ان نداوى جرحك فتسامح مع عجزنا وضعفنا .. وهواننا على من كنا يوما نسميهم أحباباً .

ليتنا نعرف الحقيقة ؟ !

شيء في قلبي يؤلمني كلما استعدت أيامنا معا .. أشعر أحياناً أنك كنت أكبر وهم صنعته في خيالي وصدقته ثم أفقت على حقيقة مؤلمة أنك مجرد كذبة صدقتها مع نفسي حتى أدركت الحقيقة وأفقت بعد فوات الأوان .

وما بين الحقيقة والوهم .. وما بين الكذب والصدق يطوف وجهك في خيالي فأراه حقيقة .. وأشعر أننا عشنا معاً لحظات قصيرة ولكنها كانت بكل المقاييس زمنا طويلاً في مشاعره وصدقه وإحساسنا به .

وما بين الوهم والكذب .. أراك خيالاً عابرًا توقف أمام عيني لحظة ثم مضى بعدأن خلف وراءه صمتا وسكونا ووحشة .

لا شك أننى أفتقدك فى حياتى.. ولا أدرى هل هذا الافتقاد لأنك كنت حقيقة.. أم لأنك كنت مجرد وهم صدقته وتمنيت لو كان يوماً حقيقة.. وهل يمكن للإنسان أن يفتقد وهما .

واستعيد ذكرياتنا معاً فأراها حقيقة فى أحلامها .. وطقوسها ومعاناتها .. وظروفها الصعبة .. أراك أمامى ونحن نواجه المستحيل ونسبح بين أمواج متوحشة .. ونحارب عدوا لا نراه ونحو ندرك من البداية أننا خاسرون .. ورغم هذا كله كنا نواجه ونحارب ونحاول الوصول .

لقد كانت معاركنا حقيقة ولم تكن وهما .. فكيف نحارب دفاعًا عن مشاعر لم تكن أكثر من وهم جميل صدقناه .. ورسمنا له صورة جميلة فى خيالنا .. هل انكساراتنا جعلتنا ننسى حقيقة مشاعرنا فنشك فيها وفى انفسنا .. انالا احب ولا أريد ان اصل إلى هذه النتيجة .. لا أريد ان أشعر ان كل ما عشناه كان مجرد وهم جميل لأننى عشته بكل ذرة فى كيانى .. فكيف كانت كل هذه السنين رحلة فى قارب من الأوهام .. وكيف كانت كل هذه المشاعر مجرد لقاء عابر انتهى إلى جرح عميق وذكرى عابرة.

وإذا لم يكن ما بيننا حقيقة .. فأى حقيقة بعد ذلك يمكن أن نصدقها وإذا لم يكن هذا الإحساس العميق حبا ... فماذا نسميه بعد الآن .. وأين الحب إذا كان الذى عشناه مجرد وهم

جميل فهل كنا نسبح ضد التيار ونحن نعرف أننا يمكن أن نموت غرقا وكانت سباحتنا مجرد لحظة جنون صدقناها .. هل كانت معاناتنا بكل ما حملت من الانكسارات والألم .. مجرد لحظات ضيق عابرة .

هل كانت أيام سعادتنا ونحن نتجاوز حدود الأزمنة والأمكنة والبشر مجرد صور جميلة لم تكتمل.

اسأل نفسى أحياناً من يدلنا على الحقيقة .. من يقول لنا حقيقة أيامنا ومشاعرنا وهذا العمر الذى قضيناه معا .. أريد من يقتحم أسرار القلوب ويقول لى أين كان سكنى فى حياتك .. وأى جزء فى قلبك احتوانى ؟

وهل كنت حقيقة أم كنت وهما ؟. أريد جراحا ماهرا يفتح قلوبنا ويبحث عن صورة كل منا فى قلب الآخر.. أريد معجزة استطيع من خلالها أن احسب معك أيام عمرى وهل أنفقتها بلا جدوى أم وضعتها بين يدى امرأة أحببتها.. واحبتنى.. من يدلنا على الحقيقة. ومن لديه إجابة على هذه التساؤلات الحائرة ؟ وهل يمكن أن ينتهى كل شىء وأسرارنا فى قلوبنا لا نعرف عنها شيئاً ؟

إن الإجابة يمكن أن تريح قلوبنا المتعبة .. فسوف أخجل من نفسى كثيراً إذا اكتشفت أننى كنت فى حياتك كذبة جميلة، وأنك

كنت فى حياتى وهمًا رائعاً.. سوف أفقد إيمانى بكل ما هو جميل فى هذه الحياة إذا أدركت أننا عشنا حقيقة ناقصة.. وأن ما بيننا كان حلما ناعما صدقناه.. ليتنا نعرف الحقيقة قبل فوات الأوان وقبل أن تتكسر بين أيدينا آخر ذكريات العمر الجميل.

★ ★ ★

أشياء صغيرة جداً .. تسعدنا

فى بعض الأحيان تبدو الأيام أمامى شاحبة .. أحاول ساعتها ان اغير شيئاً من ملامحها حتى يعود لها جمالها وشموخها القديم.. ومن الأشياء التى تصيبنى بحزن شديد حين أشعر أن الحياة ضاقت حولى.. فالأماكن موحشة.. وإيقاع الزمن تغلب عليه الرتابة.. والناس مشغولون، كل يسعى فى طريق.. وأجد نفسى واقفًا فى منتصف طريق .. كثيرون حولى ولكن لا أراهم، واحياناً اعتقد انهم ايضًا لا يروننى.. والصباح لا يختلف كثيراً عن المساء.. والليل يجرجر خلفه النهار وأحاول أن أبحث عن شيء جديد يعيد للحكاية رونقها .

وفى أحيان كثيرة تبدو المهمة صعبة للغاية .. ما أريده بعيدًا .. وما لا أريده يزعجنى .. والجسور بينى وبين الناس تحكمها اعتبارات كثيرة .. فأنا أحب الناس على طريقتى وأقترب منهم حينما أريد .. والأشياء عندى لا يحكمها العدد ولكن تحددها القيمة .. وأنا لست من هذا النوع الذى يسعى للحظة عابرة .. ولكننى أسعى لزمان يدوم .. وأحب الود المتصل .. ولا أقنع بما تحمله أحياناً زوابع الأيام من بعض الأمطار ، ولكننى أحب فصول الأيام فصلا فصلا . فأحب الشتاء امطاراً .. وأحب الربيع أزهاراً ، وأحب الخريف حنينًا .. وأحب الصيف شروداً ، وحينما تبدو الأيام موحشة ألجأ إلى بعض الأشياء حتى تستعيد الأيام تناسقها وتناغمها القديم .

ربما شدنى كتاب أجد فيه نفسى .. وفى لحظات الانكسار الكبرى فى تاريخ البشر .. يمكن للإنسان أن يبحث عن لحظة توازن يأوى إليها وينقذ بها نفسه من شبح الإحباط .. وإذا كان ذلك يحدث فى حياة الشعوب فهو يحدث فى حياة الإنسان .. حينما أشعر بالألم والمرارة من لحظة زمن يمكن أن أمسك بلحظة أخرى منحتنى السعادة وأسترجعها، وأعيش معها كأنها كانت بالأمس .. وحينما يبدو تجاوز من إنسان أحبه أبحث عن تذكاراتى معه وأجد أشياء كثيرة منه أسعدتنى، وحينما تطوف فى خيالى لحظة موحشة .. أفتح صفحة الأيام الجميلة .. فأجد اناسا

احببتهم .. وأجد افراحاً وأياماً جميلة جمعتنى بهم .. وتبدو صورة الأشياء الجميلة أكثر بريقًا من كل الوجوه الموحشة حولى.

فإذا وجدت طريقاً موحشاً أسير فيه أحاول أن أتذكر لحظة جميلة عشتها يوما عليه . وإذا وجدت إنسانًا كريها يقف فى وجهى .. أحاول أن أذكر عشرات الوجوه الجميلة التى رأيتها فى رحلتى مع الحياة وإذا انطلق سهم يسكن قلبى.. حاولت أن أبحث عن مئات الزهور التى لاحت أمامى ذات يوم وافترشت طريقى، إذا شعرت بمرارة جحود أو إساءة تذكرت نماذج كثيرة أعطت وصدقت.. وأحبت .. وأخلصت .

وفى بعض الأحيان تسعدنى جداً رسالة رقيقة فى مناسبة او غير مناسبة ، وأجدها زهرة جميلة تطل فى ليلة خريف جافة تعيد للحياة شبابها وللقلب مشاعر الدفء والأمل .

لا ينبغى أبداً أن نترك الواقع يحاصرنا .. وإذا كنا غير قادرين أن نواجه ملامحه القبيحة فيجب ألا نفقد إيماننا بقدراتنا على أن نواصل أحلامنا فى زمن أجمل .

إن الإنسان يخطىء كثيرًا إذا وضع كل حساباته على اليوم.. فالزمن كائن ممتد لا أول له ولا آخر .. هذا اليوم الذى نعيشه كان بالأمس طيفاً .. وغدا يصبح ذكرى .. وما دام الإنسان قادرًا على أن يحلم .. ويعطى ويحب .. فلا ينبغى أبدا أن يجلس على أطلال

يوم موحش ويبكى عليه .. لدينا الأمس بذكرياته .. ولدينا الغد بكل الأمل فيه .. ولدينا الحياة باتساعها .. ولدينا البشر باختلاف جوانب القبح والجمال فيهم .. المهم ألا نقف عند نقطة واحدة ونتصور أنها نهاية الكون .. فليس للكون نهاية .

★ ★ ★

أشياء تقتل الحب

قالت : ماذا تقول عن حبيب سافر ولم يسأل .. ومرت الأيام والشهور ولا أعرف عنه شيئاً ؟.. ما الذى يميت الحب ؟.. وما الذى يجعله أقوى من الظروف ؟.. وهل يموت الحب فعلاً .. أم يبقى داخلنا ويحتل مكاناً بعيداً فى أعماقنا ونحن لا نعلم ؟

قلت : أما عن الحبيب الذى سافر ولم يسأل .. فربما كانت عنده ظروف منعته من السؤال .. وربما تغيرت أحواله .. وفى الحالتين لابد أن نعرف الحقيقة أولاً .. هل لم يعد يسأل إهمالاً .. أم ظروفاً؟ .. والفرق بينهما كبير .. لأن الإهمال شىء مقصود .. ولكن الظروف أحياناً تكبل إرادة الإنسان وتشل حركته ويصبح

غير قادر على مواجهة أى شىء، ولهذا لا تظلمى حبيبك المسافر حتى تتكشف حقيقة موقفه .

والأشياء التى تميت الحب كثيرة، والحب أحياناً يموت اغتيالاً مع سبق الإصرار .. وأحيانًا يموت بطريق الخطأ .. وأحياناً يموت وحده واقفاً دون أية جريمة .

ولهذا لا يمكن أن تتساوى جريمة القتل مع سبق الإصرار .. مع جريمة القتل الخطأ .. وإذا مات وحده فليست هناك جريمة على الإطلاق .. لأن ذلك يدخل فى باب القضاء والقدر .

وهناك ثلاثة أشياء تقتل الحب وإن اختلفت درجتها .. الإهمال .. والجفاء .. والخيانة.

وقد يكون الإهمال فعلاً غير مقصود خاصة فى ظروف الحياة الحالية وما فيها من مشاغل .. وقد يتحول الإهمال إلى سد يزداد مع الأيام ارتفاعاً حتى يحجب الرؤية.. وتتوه الملامح.. وتتراجع المشاعر.. ويموت الحب إما عن قصد.. أو غير قصد.. والنتيجة واحدة.

وفى أحيان كثيرة يتحول الإهمال المقصود إلى شىء آخر نسميه الجفاء.. وهو إحساس يكبر داخلنا أمام الإصرار على الإهمال.. وفى أحيان كثيرة يتمثل الإهمال فى درجة من درجات البعد المقصود.. ومع الوقت يتحول البعد إلى جفاء.. والجفاء أيضًا

يقتل الحب.. وأخطر ما فى الجفاء اللامبالاة.. لأن الإنسان يشعر فى ذلك الوقت أن الأشياء تساوت فأصبح القرب لا يختلف كثيراً عن البعد.. وهنا يموت الحب بسرعة غريبة.. وربما ترك بعده ظلالاً كثيرة من الإحباط والمرارة.

ونهاية الحب هى التى تترك آثاره .. ولهذا تختلف آثار النهاية حسب كل حالة .. فقد ينتهى الحب نهاية مؤلمة ولايبقى منه إلا الرماد .. وقد ينتهى الحب فى الواقع ليبدأ رحلة جديدة هى ما نسميه الذكرى .

والفرق بين الرماد .. والذكرى هو الفرق بين نهاية تركت جراحاً .. ونهاية أخرى تركت أجمل الأشياء فينا وصارت أكبر من النسيان .

أما الخيانة فهى الجريمة التى تحمل الحب إلى حبل المشنقة دون حكم أو دفاع أو قضية .

إن الخيانة جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد .. وليس فيها دفاع أو محاكمة .. خاصة إذا ثبتت أدلتها وجوانب الفعل فيها.. ومن الصعب جداً أن نصدر عفواً أو تسامحاً حول هذه الجريمة .. حتى ولو تصورنا أن ذلك ممكن .

الخيانة هى الضربة القاضية التى تجهض الحب تماماً.

★ ★ ★

الحب بين الشك واليقين

سألته : من منا أحب الآخر اكثر ؟ وكيف يعرف الإنسان درجات الحب عند الطرف الآخر هل فى السلوك .. أم المواقف .. أم الأحلام .. أم فى القدرة على الكلام .. أى التعبير عن المشاعر .. ومن الذى يكسب فى قضايا الحب الحلم .. أم الموقف ؟

قلت : الذى أحب الآخر أكثر هو الذى مازال يحبه حتى الآن.. ويشعر انه سيحبه غداً .. وأن مشاعره أصبحت جزءاً من حياته ووجوده وكيانه .. إننا لا نستطيع ابداً أن نفتح قلبًا لنعرف من الذى سكن فيه ومن الذى فارقه .. يستطيع الإنسان أن يقول كلاماً جميلاً فى الحب .. ثم يكتشف فى موقف واحد أن الحب لم يتجاوز حدود الكلام.

ولهذا أنا أريدك أن تطرحى هذا السؤال على نفسك : هل شعرت يوماً أن حبك لى كان الأكثر .. أم أن شعورك الدائم هو أن حبى أنا كان هو الأكثر.. إننا عادة لانتساءل عن اليقين.. وإذا وصل الحب إلى درجة اليقين يصبح من الصعب أن نتساءل عن وجوده.. أو درجة عمقه.. إن التساؤل يرتبط بالشك أكثر مما يرتبط باليقين.. وعندى إحساس بأن حبى وصل إلى درجة اليقين.. ولهذا لم أعد أتساءل .. من منا أحب الآخر أكثر ؟

وفى الحب لا توجد درجات.. ولكن أستطيع أن أسأل النهر أى الروافد يعطيك من الماء أكثر .. لأن الحقيقة أن هذا الرافد حتى ولو كان صغيراً فهو يعطى ما عنده ولم يبخل بقطرة ماء واحدة.. ثم.. إن كل رافد تحكمه ظروف.. هناك رافد يشق الجبال ويقطع الأميال حتى يصل إلى النهر ويقدم له ما عنده.. وهناك رافد طريقه سهل وميسر ويمضى مندفعاً فى السهول والوديان.. وقد تكون مياة الثانى أكثر. ولكن طريق الأول أصعب. فمن منهما أحب النهر أكثر ؟

وحينما تختلط المياه وتتعانق ينسى الجميع من أعطى ومن تعب ومن سافر. ويبقى أن لحظة الحب هى ذلك الإحساس الذى يحتوى القلوب فتنسى كم تعبت.. وكم حاولت وكم عانت وكم صبرت. من أجل هذا أرفض سؤالك من منا أحب الآخر أكثر..

وأريد أن تسألى نفسك من منا بقى على عهده؟.. ومن منا حافظ على الآخر.. ومن منا كان أمينا على قلبه؟

أما الأحلام والمواقف والسلوك فكلها توابع «بلغة الزلازل» وكل إنسان حسب قدرته وإمكانياته .. أنا لا ألوم الشجرة إن كانت ثمارها قليلة.. لأن ظروف الحياة تمنعها من أن تعطى ثماراً كثيرة.. ولا ألوم النهر إذا جاءت مياهه قليلة .. لأن السحاب كان بخيلاً عليه .. كذلك لا ألوم إنساناً لم يبادلنى حلماً بحلم .. ولكن ألومه لأنه لم يبادلنى حبا.. بحب.

والفرق بين الحلم والحب.. إن بنوك الأحلام ليست فى يدنا وتحكمها اعتبارات كثيرة .. أن الأحلام تدخل أحياناً فى دائرة المعاملات اليومية.. فيها كسب وخسارة ..وفيها الممكن والمستحيل.. ولكن الحب هو المنطقة الوحيدة فى أعماقنا التى ندخلها بدون تأشيرة دخول .. ونطوف فيها دون علم الآخرين .. ونسافر فيها ولايتبعنا أحد .. أحياناً يمكن أن تكون أحلامى فى أيادى الآخرين .. ولكن حبى فى يدى .. وشتان بين ما أملكه أنا .. ومايملكه الآخرون ... أستطيع أن أحبك كل دقيقة .. حتى وإن رأيتك كل عام مرة .. وأستطيع أن أسافر إليك كل لحظة .. وبينى وبينك مسافات ومسافات .

والحب هو الدقيقة التى أتحكم فى كل ثوانيها .. والحلم هو العام الذى يشطرنا شرقاً وغرباً .

الحب هو اللحظة التى أملك كل تفاصيلها .. والحلم هو المسافات البعيدة التى تحملنا إلى المستحيل .

وأنا أحبك حتى لو خذلتنى أحلامى .. وتسربت منى.. وأصبحت أطاردها كالمجنون فى الطرقات .

وإذا كانت الأحلام قادرة على أن تخذلنى.. فالحب هو الشىء الوحيد الذى سيظل دائماً ينصفنى.. ولهذا سأظل دائماً أحبك على الرغم من جحود أحلامى.. لأن قلبى فى يدى.. وأحلامى شاردة فى بقاع الأرض.. ما أجمل أن يجتمع الحب والحلم.. ساعتها يملك الإنسان هذا الكون ويرى أقداره فى يديه.. كم هى قليلة أحلامى ، ولكن يبدو أنها جاءت فى زمن بخيل .

★ ★ ★

كل ثانية .. وأنت فى حياتى

تعالى نطوى صحفة العام معاً .. والشىء الغريب أن هذه الصفحة ليست مثل كل الصفحات .. إنها صفحة جمعتنا فيها أقدارنا رغم كل الظروف الصعبة التى كان اللقاء معها مستحيلاً..

ورغم أن الأوقات التى قضيناها معاً كانت قليلة.. وقصيرة.. وخائفة.. إلا أن الزمن عندى لا يحسب أبداً بالأيام والسنين.. إننى واحد من هؤلاء الذين يحسبون الزمن باللحظات.. إننى أفضل شبرا من الأرض الخضراء عن إقطاعية واسعة من الصحارى والخرائب . إننى أحب أن أرى بيتا صغيرا مسكوناً بالبشر.. ولا أرى قصراً كئيباً تسكنه العفاريت.. ورغم أن العمر معك لحظات

إلا أنهاعندى بكل الأزمنة.. ومعك يصبح القليل كثيراً.. ويصبح القنديل صبحاً.. وتصبح النجمة البعيدة ألف قمر فى سماء الكون.

معك أشعر بإنسانيتى فى زمن استباح إنسانيتنا ووجودنا ، وعرضنا للبيع فى أزمنة القبح الرخيصة .. معك أتوحد مع الكون فأجد نفسى بعضًا من ذراته .. وأتوحد مع الخلود فأجد نفسى أكبر من العوارض .. وأتوحد مع إحساسى بك فأملك الكون كله وأشعر أننى واحد من أغنى أغنياء هذا العصر .. وثروتى ليست فيما أملك.. ولكنها فى إحساسى بك.. ووجودك معى.. لحظات قليلة جمعتنا.. وايام طويلة فرقتنا.. ورغم هذا أجدك معى كياناً دائمًا لا يغيب .. ووجها مشرقًا يشعرنى أن الزمن أحياناً يقسو علينا فترات طويلة .. ويصافحنا فى لحظة ود صادقة .. ولانجد أمامنا غير أن نسامحه ونبدأ معه صفحة جديدة ، وأنا سامحت الزمن فيك.. وصافحت الأيام معك.. فليس الزمن بأيامه الطويلة.. فما أكثر الصحارى الواسعة فى بلادنا.. ولكنها مخيفة وموحشة وكئيبة، وهى تذكرنى بأيام العمر الطويل الذى لا شىء فيه سوى الوحشة.

ولكن هناك لحظات قليلة من الزمن تشعرنا أننا نخلق من جديد ونعيد ترتيب العمر والبشر والأشياء .

إن اللحظات القليلة التى قضيناها معاً تجعلنى أتسامح كثيرًا مع زماننا العجيب .. تبدو الشوارع أحياناً أمام عينى مزدحمة

بآلاف الوجـوه .. ولكنهـا وجـوه هائمـة على نفـسـهـا .. وتتـرنـح الأجساد فى زحام المدن الصاخبة وأحاول أن أتذكر منها وجهًا فلا أستطيع ..

ولكن وجـهك أنت دون كل الوجـوه يصـبح أمـامى هو المأوى والملاذ.

إننى مازلت أتحدى بك أشباح القبح التى تطاردنى.. وأزمنة القهر التى استباحتنا تاريخاً وبشراً .

مـازلت أرى فى وجـهك أزمنة ستجىء .. أكثر إشراقًا وأمـلاً ومازلت أرسم على أطلال هذا الكون صورة حلم ربما يتحقق يومـاً ويصبح حقيقة .. أن يعود للحياة جلالها القديم .. وأن يعود للبشر صدقهم القديم .. وأن تعود للحب أوطانه القديمة ..

ولكننى اخـتـرتك دون كل الناس لنصنع هذا العـالم العـابث المجنون معـاً .. أن نعيش عـالماً يكتفى باللحظة عن العمر .. ويغنيه القليل عن الكثيـر .. ويجد فى البيت الصغير الأمن والسعـادة أكثر مما يجده فى قصور الدنيا ..

اختـرت أن نعيش معًا لحظات .. وتصبح أكبـر من العمـر .. وأن نصنـع حلمًا صغيـراً يغنينا عن آلاف الأحـلام المزيفة.. سـوف نودع معـاً عـامـاً.. ومـادمت فى حيـاتى فـاللحظة معـك تسـاوى كل أعوام العمـر.. كل ثانيـة وأنت فى عمرى.. عمرى.. وكل سنة وأنت فى حياتى.

فى صحراء أيامنا ..
نريد شجرة واحدة ؟

بعض الناس سقطوا منى ولم أعرف حتى الآن سببًا لسقوطهم.. لقد تسربت أيامى معهم كما تتسرب المياه فى الرمال، وكلما حاولت أن أصل إلى ما بقى منها لا أجد أمامى شيئا. وفى أحيان كثيرة أشعر بحزن شديد لأننى لا أملك أن أسترد شيئا من هذه الأيام .. أو أستعيد وجهًا من هذه الوجوه .. لقد ضاعوا جميعا وطواهم ضجيج الزمن وصخب الحياة.

ولا أدرى لماذا يسقط الناس منا فى رحلة العمر .. هل لأن طبيعة الأشياء، كل الأشياء لها بداية ونهاية.. أم لأننا أصبحنا

نفتقد القدرة على التسامح.. أم لأن الحب حينما يكبر داخلنا فإنه يملأ كل شيء فينا بما فى ذلك قدرتنا على التسامح.. وحينما يمضى يأخذ معه كل شيء. وجوه كثيرة تسربت مني.. ولا أدرى لماذا لا أشعر بالندم هل لأنهم بالفعل لم يكونوا أهلا لتلك القصور الجميلة التى بنيتها لهم فى أعماقى وسكنوها زمنًا طويلاً.. أم لأن الأشياء إذا تكسرت بداخلنا فإنه من الصعب علينا أن نبعثها.. ومن الصعب عليها أن تجبر كسورها.

أصدقاء وفيت لهم عمري وكانوا رفاق رحلة .. وفجأة تهاوت كل الوجوه وتكسرت كل الطرق.. وأصبح الماضى بيننا ذكريات زمن جميل.. وأحباب سكنوا القلب واستراحوا فيه.. ولم يبق منهم غير البومات من الصور نعود إليها أحيانا ونسترجع فيها ملامح عمر لن يعود.. ومواقف عزيزة جمعتنا مع بعض الوجوه.. ولم تتجاز فى عمرها اقل الأزهار عمرًا.. فاحت بعطرها وتوارى كل شيء فى لحظة ألم ودمعة فراق.

ويحاول الإنسان أحيانا أن يسأل نفسه.. ما الذى كسر هذه الوجوه؟ وما الذى شوه هذه الملامح؟ ومن الذى أضاع كل هذا العمر؟

هل لأن طباع الناس تغيرت .. أم لأن الوفاء أصبح ضيفا غريبا فى حياتنا .. أم لأن العلاقات الإنسانية تحتاج مع الحب

صبراً .. ومع الوفاء تسامحا .. ومع العمر رعاية .. ومع الزمن إحساسا دائماً بالمسئولية .

هؤلاء الذين سقطوا فى رحلة العمر كانوا جزءاً عزيزاً من هذا العمر فكيف يتخلى الإنسان عن جزء منه ؟ ، وماهى اللحظة التى تجعل الإنسان يقطع هذا الجزء غير آسف عليه ؟

إنها لحظة إنسانية غريبة وعميقة وغير مفهومة أن يملك الإنسان الشجاعة والقرار ويفصل نفسه عن نفسه .. ويشطر بعضه من بعضه رغم أنه يعلم مسبقاً حجم الألم الذى سيعانيه .. والحزن الذى ربما سكن كل شىء فيه .

وفى تقديرى أن السبب فى ذلك كله هو عمق المشاعر .. من السهل جداً أن تقتلع شجرة بلا جذور دون خسائر .. إن الأعشاب لا تترك شيئًا على وجه الأرض ونحن نقتلع جذورها لأن هذه الجذور واهية وضعيفة ولا تستطيع أن تخترق طبقات الأرض مثل الأشجار العتيقة .

ولأن الأشجار تمتد فى أعماقنا .. ولأن جذورها تتسرب فى كل شىء داخلنا فإنها تترك فى القلوب جراحا .. ونزيفا .. ولانملك بعدها غير الألم .

ولأن هؤلاء الذين سكنوا حياتى يوما كانوا فى القلب .. وامتدت جذورهم إلى أعمق الأعماق فقد تركوا فى القلب وحشة .. وفى النفس أحزانًا .

ويبقى بعد ذلك كله أن الأرض التى احتضنت الأشجار يوماً ومنحتها الحياة .. والدفء .. والأمن لا تستطيع أبدًا أن تتنكر لمشاعرها .. قد ترحل الأشجار .. وتترك خلفها فراغاً .. وجراحاً وقد تختار الأشجار أرضًا أخرى .. وفصولاً أخرى .. ووجوهاً أخرى ، ولكن الأرض أكثر وفاء من الأشجار .. وأكثر تقديراً لمعنى العطاء والصدق فى المشاعر .. ولهذا لم أعد أحزن كثيراً كلما سقطت شجرة فى حديقة أيامى .

ويبقى بعد ذلك كله أن الإنسان وسط هذا العالم المجنون يحتاج لظلال شجرة واحدة تصون عهده .. فما أكثر الأشجار المزيفة فى زماننا العجيب .

★ ★ ★

من أين يأتينا الجفاء ؟

قالت : تسرعت فى أحكامك فأخطأت .. وتركت قلبك للظنون والهواجس .. أحرقت كل ماكان بيننا .. ودمرت آخر معاقل الحب التى كانت تحمينا من كآبة هذا الزمن العجيب .. أتأملك الآن وأنت بعيد وأحزن لحزنك وأشقى بظنونك .. ولكن الأمر لم يعد بيدى ولا بيدك .. ماذا يفعل المسافر بعد أن تحركت عجلات القطار .. لا يستطيع أن يوقفها ولا يستطيع أيضًا أن يلقى بنفسه فوق القضبان .

قلت : حينما يصرخ الإنسان في أعماق بئر سحيقة ولايجيبه أحد لا ينبغى أبداً أن نلومه إذا بكى أو صرخ أوأصابه

الجنون .. لأن الإنسان الذى يجلس على الشاطئ لا يمكن أبداً أن يشعر بمعاناة الغريق ولهذا لا ينبغى أن نلوم غريقًا يصرخ فى الآفاق يطلب النجدة .

لقد كان يتحدى الغرق بهذا الصراخ : هل نلوم الغريق لأنه يصرخ ولا نلوم أنفسنا لأننا لم نحاول أن ننقذه ؟ .. وما الذى يترك الظنون تكبر وتنمو فى أعماق الناس ؟ .. إنه الجحود .. هذا الإحساس المخيف الذى يتسلل إلى القلوب ويفقدها الرحمة .. ولماذا زارنا الجحود وهو أبعد ما يكون عن قلوبنا .. إن الجحود يأتى من الجفاء .. وحينما يتعلم الإنسان كيف يجفو فهو يفتح ألف باب للجحود والنسيان والإهمال والقسوة .

قالت : مثلى لا يعرف القسوة .. ولم يعرف الجحود .. أنت إنسان بنيت أحكاماً خاطئة على مواقف لا أساس لها .. فقد تخيلت أشياء .. ولكن خيالك دخل بك إلى مناطق بعيدة .. موحشة .. وكئيبة .. الخيال شىء رائع وجميل إذا تلونت به الأيام والأشياء .. وهو شىء سيىء إذا قلب موازين الأشياء فى عيوننا .. يمكن أن يصبح السحاب إحساسًا خريفيا رائعًا .. ويمكن أن يصبح شيئًا كئيبًا يملأ القلوب بالوحشة .. والفرق بين الاثنين هو الأسلوب الذى نرسم به الأشياء فى عيوننا لنراها.

حينما كنت تحب.. كنت ترى كل الجمال فى وجهى ..

وحينما تغيرت تبدل هذا الوجه فى عينيك.. فصار البريق عذابًا.. وصار الإحساس وحشة.. أنت لم تتغير فى عينى لأننى لم أترك أشباح الخيال المدمر تجتاح حياتى.. رغم قسوة الظروف.. لم أحاول أن أصدر عليك أحكامًا خاطئة لأنك لا تملك الدفاع عن نفسك.. ولكنك بكل البساطة أقمت الأدلة.. والاتهامات ونصبت المحكمة وأصدرت الأحكام ونفذتها.. والمتهم غائب لا يعرف شيئًا.. هل هناك ظلم أكبر من هذا.. وبعد ذلك كله تلومنى وتتهمنى وتسرف فى إيذائى أنت رجل جارح .. إذا أحببت أقمت تمثالا رائع الجمال لمن تحب .. وإذا تغيرت حطمته وجلست تبكى على أنقاضه ...وأنا يا سيدى أرفض أن أكون تمثالك الجميل الذى تصنعه فى خيالك وتحطمه أيضاً فى خيالك .. أنا إنسانة عاشقة.. أدرك قيمة الحب .. وأعرف قيمة الإحساس .. وليست عندى أحكام متسرعة لا أظلم إلا إذا تأكدت .. ولا أهجر إلا إذا أيقنت ولا أفتح للظنون بابى لأنها لا تحمل إلا الدمار .

قلت : وما الطريق ؟

قالت : أن تراجع نفسك وأخطاءك وظنونك القاسية .. أنت الذى قطعت الجسور .. وعليك أن تعيد وصلها .. وأنت الذى أصدرت الأحكام وعليك إلغاءها .. وأنت الذى تركت العش للخفافيش الموحشة .. وعليك أن تعيد لها الغناء.

قلت: وكيف أغنى وأنت بعيدة ؟

قــالت: عــصـــافــيــر الكنـاريا يكونْ غنـاؤها أجـمل إذا كــانت بعــيــدة.. ونحن نعـرف قــدرنا وعلينا أن نقــبله .. أن نغنى حتى لانموت من الحـزن .. أنت هناك تغنى .. وأنا هنا أغنى .. وسـوف يحمل ضيـاء البدر صوتك القادم من بعيد .. أنا على يقين أنك لن تغنى لأحد غيرى .

قلت : وأنا أيضاً أعرف ذلك.

★ ★ ★

أيامى بعدك

الأيام بعدك ثقيلة موحشة .. لم يبق لنا غير سحابات البعد التى تطاردنا ظلالها وتسد علينا ضوء الشمس كلما تسلل وحاول أن يخترق الأماكن والأشياء .. لا أدرى لماذا دخلت بنا الأيام إلى مرحلة استسلام غريبة ؟ .. هل فقدنا القدرة على المقاومة ؟ هل يئست قلوبنا المتعبة؟ هل رضيت أنت بالواقع الأليم واكتفيت أنا بخيوط الذكرى .

اشعر الآن أننا لم نعد نقاوم كما كنا يوماً ..هل لأن الظروف اصبحت أصعب كثيراً مما كانت عليه ؟ هل أدركنا استحالة الحلم الذى رسمناه يوماً على الورق؟ هل خذلتنا أيامنا وأحلامنا وخذلنا أيضًا صبرنا ؟

احزن الآن كثيراً كلماً جلست مستسلمًا مع يأسى .. واحاول أن أستعيد النبض القديم واجد نفسى مستسلماً لما قدرته الأيام علينا .. أرى صورتك من بعيد واحاول أن أمسك بآخر خيط من خيوط الأمل.. أقول لنفسى.. يمكن أن نلتقى فى الصيف القادم.. فى الربيع القادم .. فى الخريف القادم.. يمكن أن نلتقى على ضفاف يوم جميل يجمع شملنا ساعة ويرحل .. وتتسرب إلى قلبى مشاعر الألم والوحشة .. ما زلت أتصور أشياء ربما انتهى زمانها.. ماذا يفيد أن تجلس وحيداً على أعتاب ذكرى قليلاً ما تعبر على خاطر إنسان أصبح ابعد كثيراً من الحلم.. واقرب كثيراً من الوهم.. أنا غير قادر الآن على أن أعايش الحلم.. غير قادر على أن أقبل الوهم.. وأسأل نفسى.. ماذا تشعرين الآن.. هل انت حائرة مثلى.. أم أننى كتبت القصة ورسمت ما فيها ووضعت فيها كل أحلامى وأوهامى ويأسى.. وانتهى كل شيء بيننا على أعتاب هذا اليأس ؟

إلى أى مدى يستطيع الغريق أن يتحمل قسوة الماء ؟ .. إلى أى مدى يستطيع الإنسان أن يعيش بلا هواء يتنفسه ؟ .. إن الحلم هو الهواء الذى يتنفسه الحب .. فماذا ينفع الحب عندما يشعر أنه يختنق؟ .. أنا الآن أختنق .. كلما لاحت صورتك أمامى يحملنى ألم عميق .. كيف أرى حولى آلاف الوجوه ولا اراك ؟..

كيف أتجول فى كل حدائق الأرض وأنت الشجرة الوحيدة التى أريدها ولاأستطيع الوصول إليها .. كيف يكون العالم ملكى وأنا لا أستطيع أن أصل إلى أقرب نقطة فيه إلى قلبى .. وكلما فكرت فى ذلك أجد نفسى ثرياً مفلساً .. أملك قصور الأرض والمكان الوحيد الذى أحبه وأريده لا أستطيع أن أضع أقدامى فيه .. أملك الملايين ولكننى لاأريد منها إلاورقة وحيدة حولها ألف جدار .

تذكرتك كثيراً هذه الأيام .. كنت حزينا ومازلت .. وتمنيت لوسمعت صوتك من بعيد .. كانت أحزانى أكبر بكثير من قدرتى على الاحتمال .. أصدقاء رحلوا .. وأيام تعبث بنا فى كل اتجاه .. ومشاكل مستعصية .. وكلما كانت سحابات الحزن تعبر أمام عينى كنت أتساءل أين هى الآن ؟ ألم تشعر لحظة واحدة باحتياجى لها .. وكنت أقول لا تسأل المسجون لماذا لم يصافحك فى لحظة حزن .. فلو كان قادراً على الخروج من سجنه لكان أقرب الناس إليك ؟.

أدافع عنك كثيراً بينى وبين نفسى .. وأجد لك عشرات الحجج والأسباب .. ولكننى وسط هذا كله أفتقدك كثيراً وأشعر أحياناً أن الأيام يمكن أن تسلبنا أغلى مانملك .. وساعتها يمكن أن نندم كثيراً على العمر الذى يضيع ولا يجىء .

تمنيت لو أننى كنت معك الآن لأقول لك أشياء كثيرة .. عندى لك الكثير .. عندى أحزان عميقة وأيام متوحشة .. وافتقاد بطول الكون .. ولهذا حاولت أن أشكو لك بعضا من أحزانى .

لحظة استسلام

هل كنت على حق يوم قلت بأن الظروف أقوى من مشاعرنا .. وأن البعد سوف يضع بيننا أسوارًا كثيرة .. وأن الحب يمكن أن يواجه ظروفًا صعبة أمام قسوة الأيام ووحشة الزمن .

لم أكن أصدق هذا الكلام وكنت أرى دائمًا أن مشاعرنا أقوى من ظروفنا .. وأن الأسوار التى تبدو أحياناً بيننا يمكن أن تكون جسورًا نستعيد بها التواصل .. وأن وحشة الزمن تدفعنا لأن نبحث عن لحظة دفء حتى ولو كانت بعيدة .

ويبدو أنك اقتنعت بأفكارك واستسلمت للظروف الصعبة .. واخترت أكثر الطرق أمنا وسلاماً .. ولهذا استرحت .

لم أعد أسمع صوتك رغم أنه آخر مابقى بيننا من خيوط التواصل .. وبدأت أشعر أن هناك ظلالاً كثيفة تظهر أمامنا من بعيد .. لا أعرف عنك شيئًا .. ولا تعرفين عنى شيئًا حتى الأخبار أصبحت بعيدة . لم أعد أسمع حكايتك وما حملته لك الأيام .. هل ترى أنت سعيدة أم حزينة ؟ أى المشاعر تحتويك الآن .. وأى بلاد الله صارت لك بيتا رغم أننى أعلم أن الأماكن لا تهمك بقدر ما يهمك البشر .

كنت أسأل نفسى أحياناً هل يمكن أن يعيش الحب وسط هذا التواصل المفقود؟ . وهل كنت من الذكاء بحيث فرضت الأسلوب والطريق الذى مضينا فيه ؟ لقد كانت بيننا لحظات صراع دامية .. كنت أراك مستسلمة للواقع الحزين .. وكنت أحاول أن أحملك مستسلمة للواقع الحزين .. .. وكنت أحاول أن أحملك بعيداً عن هذا الواقع وأحلق بك مع حلم جديد وزمان جديد، ويبدو أن الواقع انتصر على أحلامى .. وأن الفارس المكابر استسلم فى النهاية أمام الواقع الأليم . فى كل مرة كنت أراك فيها كنت أحاول أن أغرس شيئاً من الأمل .. ولا أنكر أبداً أن هذه المحاولات نجحت فى أحيان كثيرة فى أن تدفع بنا للأمام إحساسًا ومشاركة وتواصلاً حتى ولوكان ذلك على جناح حلم .

حتى أحلامنا الصغيرة التى حققناها معاً وتحايلنا بها على الظروف الصعبة كانت تبدو أمامنا شيئًا كبيراً لأننا كنا نشعر أن

الأشياء يمكن أن تبدأ صغيرة لكى تصبح يومًا شيئًا كبيرًا .. كانت الخطوة تشعرنا أنها يمكن أن تكون ميلاً .. وأننا حينما نتواصل لحظة فإن ذلك هو الطريق لأن نكون معًا .. كانت معاركنا مع الظروف قاسية وصعبة ولكنها كانت تشعرنا بأننا ندافع عن قيمة وعن مشاعر وعن أشياء تستحق أن نعيش من أجلها .

لقد نجحنا يوما فى أن نكون معاً رغم البعد .. وأن نعيش معاً رغم المسافات .. وأن نحلم معاً رغم الواقع الحزين .. كانت هذه هى معركتى التى حاربت من اجلها .. ان اراك معى فى كل لحظة رغم أن هناك مسافات بعيدة تفصل بيننا .. وكنت أشعر بسعادة غريبة وأنا أراك معى فى هذه المعركة .. لم اكن وحدى .. كنت أراك فى كل مكان اذهب إليه .. وانتظرك فيه .. وتأتين احياناً .. وفى أحيان اخرى لا تأتين .. ورغم هذا كنت انتظر .

ولابد أن أعترف لك اننى الآن وحيد فى معركتى، ويبدو انك تخليت عن فارسك القديم واخترت طريقاً آخر غيرالحلم .. لقد استسلمت دون أن أكون معك فى هذا القرار .. وبينما مضيت أنا وحدى أواجه الظروف الصعبة وأحاول أن أتحايل عليها . اكتشفت أن اليد التى كنت أمسك بها لم تعد بين يدى .. وأن الرفيق الذى اخترته من بين ملايين البشر قد تخلى عنى فى لحظة استسلام حزينة .. وأنت هناك .. وأنا هنا .. لا انت اخطأت .. ولا انا تخليت.. ومازلت أتساءل لماذا رفعت راية الاستسلام .

حفلة وداع صغيرة جداً

اقمت لك حفلة وداع صغيرة تليق بك . جمعت فيها كل تذكاراتنا معاً .. ودعوت لها كل الأشياء الجميلة التى جمعتنا . وحاولت أن أطوف فى كل الأماكن التى بدأنا فيها حكايتنا .. حاولت أن أرتدى أجمل ما عندى من ثياب .. وأن أستعيد صورتى حينما كنت أذهب للقائك .. أجمع الكلمات رغم أن الكلام كان يتوه منى كلما نظرت فى عينك .. وأستعيد الحكايات رغم أن البعض منها كان قاسيا وجارحا ومؤلما .

جلست مع نفسى أودعك داخل نفسى .. وشعرت ساعتها ان هذا هو آخر لقاء بينى وبينك رغم أننا افترقنا قبل ذلك ..

ولكننى شعرت هذه المرة أننى لن أراك بعد الآن حتى ولو رأيتك بالفعل .. أصعب الأشياء على نفسى أن أفارق إنساناً داخل نفسى.

أسوأ عيوبى أننى لا أبيع .. ولاأفرط فى شىء عزيز على قلبى ابتداء بالبشر وانتهاء بالأشياء .. ولقد عانيت كثيراً بسبب ذلك .. كثيراً ما كنت أقف مذهولاً وأنا أعرف أن من يجلس أمامى قد باعنى. ورغم ذلك أحاول أن أفسد عليه الصفقة ربما شعر بينه وبين نفسه أنه أخطأ .. وفى أحيان كثيرة كنت أحاول أن أقنع نفسى بأن ما يحدث مجرد خلاف عابر سرعان ما يذوب ، كنت دائماً أتمسك بآخر إحساس يربطنى بالطرف الآخر .. كنت أحاول أن أرى آخر نقطة ضوء فى عينيه .. وأن أسمع آخر كلمة من شفتيه وأن أمسك بآخر خيوط الود التى تقطعت بيننا .

هذه هى أسوأ عيوبى وأنا أعرفها .. إننى لا أبيع ببساطة .

ولكننى فى المقابل إذا بعت لا أرجع أبدًا عن طريقى مهما كان ثمن ذلك ، ومهما كان حجم معاناتى .. أنا لا أندم على شىء قررت أن أبيعه مهما كان غالياً ، وبالأمس فقط قررت بينى وبين نفسى أن أقيم لك مأتما صغيراً فى قلبى وأن أحيطك بكل مظاهر التقدير والحب والعرفان .. وأن أغمض عينى لكى أراك شامخة كأشجار النخيل .وأن أتذكر وجهك الجميل فى آخر لحظة لقاء بيننا . قررت أن أكفنك فى قلبى .

تذكرت فى هذه اللحظة أشياء جميلة بيننا .. لم أحاول أن أذكر تلك الأشياء التى تركت جراحاً فى قلبى .. أردت فقط أن أقيم احتفالاً لكل ما كان جميلاً .. فأنا لا ألومك على النهاية ولكنني ألوم الأقدار والظروف والحياة .

لقد حاولت أن أستعيدك بكل السبل .. وحاولت أن أبحث عنك بكل الوسائل وأنت تعرفين ذلك كله .. وأكثر منه . ولكن يبدو أن طريقنا اختلف رغم أننى حاولت كثيرًا أن أسلك أى طريق يوصلنى إليك جمعت حولى فى هذا الاحتفال الصغير أشياء كثيرة أحببناها معًا .

أماكن زرناها ولم تفارق خيالى .

أغنيات سمعناها وغنيناها معاً ولم تبرح قلبى .

أمنيات جميلة خذلتنا فى النهاية .. ولكننا فى يوم صدقناها وعشنا معها .

كلمات جميلة سمعتها منك .. وأسمعتها لك .

قصائد شعر أطربتنا حتى وإن كانت حزينة .

وجوه كثيرة شاركتنا أيام فرحتنا بهذا الإحساس الجميل جمعت هؤلاء جميعا حولى .. ونظرت إلى عينيك الجميلتين وأنت تجلسين أمامى وآخر نسمات الشتاء تعبر فوق رأسى وآخر أيامنا توشك على الرحيل .

لم أحاول أن أقول لك شيئًا .. فلم يعد لدى ما أقوله .. ولم أسمع منك شيئًا لأن خيوط الكلام ذابت مع قسوة القلوب .

اخترت أن أودعك على طريقتى.. فقد ظللت فترة طويلة أحاول أن أحفظ آخر خيوط الود بيننا، ولكن يبدو أننى فشلت.. فى ركن صغير فى قلبى.. وضعت زهرة بيضاء وحيدة.. وكانت تطوف حولها ذكريات عمر جميل جمعنا يومًا .

أبقيت لك فى قلبى مجموعة نادرة من الصور التى التقطها إحساس جميل .. كانت هذه الصور هى آخر تذكاراتنا

لست نادماً على الحب الجميل .. ولست نادماً على أيامنا معاً .. ولست نادماً على أننى ظللت كل هذا الوقت وهذا العمر أحاول أن أقنع نفسى بأن أبقيك فى قلبى .. وأن أعيد ما انقطع .

لقد فشلت أن أبقيك فى قلبى حقيقة كما كنت .. وفشلت أن أبقيك حلما .. وفشلت فى أن أبقيك خيالاً .. وكل واحد منا اختار نهايته .. وأنت التى اخترت هذه النهاية .. ركن حزين .. وقنديل شاحب .. ودموع شاعر . ورفات حب صغير .. وليلة شتوية باردة .. هذا آخر مابقى لك عندي .

★ ★ ★

حنين إلى الماضى

قالت : لماذا نحن إلى الماضى فى كل شىء .. لماذا نفتش عن ذكرياته ونبحث عن ملامحه وتطاردنا دائمًا أيامه .. هل هو رفض للواقع أم هروب منه .. هل هو محاولة للبحث عن براءتنا الضائعة أم أننا نشعر أن هناك أشياء أخذتها الأقدار منا ولا نملك الحق فى استردادها.

إذا جلست مع صديق تراه يتحدث بشوق جارف عن ذكريات عمر مضي، وإذا اقتربت من صديقة تجد ملامح الماضى تكسو وجهها الحزين ، وكل واحد يتصور أن صفحات الماضى هى أغلى ما يملك .. حتى الشعوب وليس الأفراد فقط يحملهم حنين صاخب إلى أمجاد الماضى وذكرياته ... وفى عالمنا العربى نتحدث

كثيراً عن الماضى شعوباً وأفراداً .. لا توجد أمة فى العالم مشدودة إلى ماضيها مثل عالمنا العربى .. ما أسباب ذلك الحنين؟

قلت: لا يستطيع الإنسان أبداً أن يتنكر لماضيه أو أن يقرر بينه وبين نفسه أن ينسف تاريخه مرة واحدة.. إن ماضينا جزء من حياتنا.. وهو الأب الشرعى للحاضر.. ومن لا ماض له.. لا حاضر له ولا مستقبل.. لا توجد شجرة عريقة بدون جذور.. ولكن توجد نباتات متسلقة.. ولا يوجد إنسان بلا ذكريات وإذا قرر الإنسان يوماً أن يقطع علاقته بالماضى فسوف يقطع علاقته بالحاضر بعد ساعات من رحيله . وإذا كذب عليك رجل وقال لك إنه لم يحب أحداً قبلك .. فسوف يتنكر لك يوما ويقول نفس الكلام لمن سيجىء بعدك وأنا أخاف من الشخص الذى حطم صور الماضى وجلس على اطلالها ولا اخاف شخصا آخر حافظ عليها .. ولا أصدق امرأة ادعت أنها لم تعرف أحداً قبلى .. ولكننى أحترم امرأة لم تتنكر لماضيها حتى وإن آلمنى ذلك أحياناً .

ولكن هناك فرقاً كبيراً بين الحنين أحياناً للماضى ومعايشة هذا الماضى .

لأن الحنين يعنى أن هناك شيئاً مضى ويحملنا الحنين إليه ولكن المعايشة تعنى أننا مازلنا نتألم مع هذا الماضى .. والحنين يعنى أن الإحساس مات ولم يبق منه سوى لحظات تذكار عابرة

ولكن المعايشة تعنى أن الإحساس مازال حيا بداخلنا ولا نملك الخلاص منه .

ومن الظلم للإنسان أن يقيم لنفسه سجنا وأسواراً من الماضى بحيث يصبح سجينا له خاصة إذا كان قد عبر ولم يترك خلفه إلا الألم .

ومن الخطأ أن تنسى الشعوب ماضيها .. بشرط واحد ألا يصبح هذا الماضى هو رصيدها الوحيد .

ومن الخطأ أيضًا أن نفقد التواصل مع ذكرياتنا ، ولكن لا ينبغى أبداً أن تصبح هذه الذكريات هى كل ما نملك .

وقد يصبح الماضى عبئاً على الحاضر لأن الإنسان غير قادر على تجاوزه من الممكن جدا أن تقف امرأة فى طريق إنسان طوال حياته فلا هى كانت له .. ولا هو أصبح قادراً على أن يكون لغيرها .

إنها تشبه الصخرة التى وقفت فى طريق النهر وحولت مجراه إلى طريق آخر .. فلا هو قادر على أن يمضى فى طريقه ولا هو قادر على أن يرجع إلى نقطة البداية .. والأخطر من ذلك أن تصبح الصخرة سداً فيكون الطوفان .

وهناك نماذج فريدة من البشر فى كل شىء .. إنها نسخة

وحيدة صاغها الخالق سبحانه وتعالى وخلق منها شخصاً واحداً ووحيداً .

وإذا قابلنا هذا الشخص فى حياتنا وقدرت الأيام أن نفترق فإن الماضى هنا يتحول إلى كابوس دائم .. إن الإنسان فى هذه الحالة يحاول أن يبحث عن هذا الوجه الذى قابله يوماً ولكنه يفشل فى الوصول إليه .. ويتحول عمر الإنسان إلى رحلة بحث أبدية عن صورة نادرة ، ويكتشف أنها غير قابلة للتكرار .. وهنا يظهر أمامنا ذلك الطيف البعيد الذى يشبه السراب، وكلما اقتربنا منه اكتشفنا انه وهم خادع .. هنا فقط يصبح الماضى كارثة لأنه ملك علينا الماضى والغد، وماأصعب أن تجلس وحيداً وأمامك صورة امرأة رحلت وأخذت معها كل الماضى وصادرت الحاضر واقتحمت أسوار الغد .

هنا فقط يصبح الماضى محنة إنسان لم يستطع أن يتجاوزه حتى وإن حاول ذلك لأنه وهب عمره للبحث عن وجه واحد نسميه الحلم المستحيل .

★ ★ ★

أشياء لا تجيء

مــاذا تفــعل لو أنك انتظرت حلمــاً ومــضت الأيام .. ثم الشهور.. ثم السنوات .. والحلم لا يجيء ؟

ماذا تفعل لوأنك مريض وانتظرت الدواء .. ومضت الليالى.. ثم تلتها الشهور .. والدواء لا يجيء؟

ماذا تفعل لو أنك انتظرت حبيبا قال لك إنه سيعود يوما وأخذت منه ألف عهد وأخذت منه ألف وعد وتناثرت العهود فى الفضاء البعيد .. ولم يف بوعده وظللت تنتظره شهرا .. وعاما .. وأعواماً .. وهوأيضا لا يجيء؟

ماذا يحدث للأرض إذا بخل عليها المطر .. وماذا يحدث للسماء إذا تخلت عنها النجوم .. وماذا يحدث للبشر إذا غابت الشمس عاماً كاملاً ؟

الأرض سوف تجف .. والسماء سوف تغرق في ظلامها .. والناس بدون الشمس يموتون برداً وصقيعًا ووحشة .. من أين يتعلم الطفل الحنان .. إن أول دروس الحنان هو صدر أمه .. فإذا خرج الطفل إلى الحياة ولم يعرف دفء هذا الصدر فكيف سيمنح الحنان للآخرين !؟

وإذا وجدت العصافير نفسها تطاردها ليالى الصقيع بلا عش يحتويها .. قد تتحمل ذلك بعض الوقت .. ولكنها ستموت حتماً إذا استمرت لياليه وطالت أيامه .

وقد تطلب من الناس صبراً .. ولكن للصبر حدودًا ولاتستطيع أبدًا أن تطالب الإنسان بأشياء لا يتحملها .

من هنا تأتى أهمية التواصل فى الحب .. فإذا قطعنا جذور الشجرة فمن الصعب جدا أن تبقى مورقة مزهرة مثمرة .

وإذا قطعنا سلك التليفون فلن يصل صوتنا إلى أحد .

وإذا قطعنا سلك الكهرباء فسوف تتحول الأيام إلى ظلام دائم حتى يستعيد السلك تواصله .

فالتواصل بكل مقاييس الأشياء حتى فى التكنولوجيا الحديثة يمثل ضرورة لا غنى لأحد عنها .. ولهذا فإن التواصل بين البشر لا يقل أهمية عن التواصل بين الأشياء .. إن للناس قلوبا تشعر .. ووجدانا يحس .. ولكن القلوب تصدأ .. والوجدان يشيخ .. وواجبنا دائماً أن نحافظ على هذا التواصل .

لو غاب عنك صديق ولم يسأل عنك ابداً .. مرضت .. وحزنت .. وكبرت .. ولم تسمع منه سؤالا .. ماذا سيبقى منه فى زحمة الأيام .. لن يبقى له أكثر من ذكريات عمرك معه .. قد تشعر بحنين نحوه .. قد تشتاق لتلك الأيام الجميلة التى جمعت بينكما .. ولكنك لاتستطيع أن تسترجعه واقعاً وتراه حقيقة لأنك غير قادر على ذلك فهو بعيد وأنت أيضًا بعيدْ .

لو كانت هناك امرأة ملكت كل ما فيك .. ولم تعد تسمع لهَا صوتاً .. ولا ترى لها وجها .. وكل ما بقى بينكما ظلال أيام رحلت .. حزنت .. وبكيت .. ومرضت .. وشفيت .. ولم تسمع لها صوتا .

سوف تشتاق إليها .. وربما اشتاقت إليك .. سوف تعود إلى ذكرياتك معها .. سوف تراها حلما أو خيالاً أو ذكرى عابرة .. ولكنك لن تراها حقيقة لأنك لا تستطيع والحب لايعيش على الذكرى إلا إذا مات .. إن الذكرى هى الكفن الذى نلف به مشاعرنا القديمة حتى لا يأكلها التراب .. والذكرى منطقة بعيدة عن الحب .. إنها التابوت الذى تدفن الحب فيه لكى نزوره حينما نريد .

والذكرى آخر الأنفاس التى نشعر بها فى الحب .. إنها اللحظات الأخيرة .. إنها نوبة سكون أبدية .. وإذا قالت امرأة عن رجل إنه صار ذكرى .. فهذا يعنى أنها كفنته فى قلبها .. وإذا قال رجل عن امرأة إنها من أغلى ذكرياته .. فهذا يعنى أنه أعد لها قبرا جميلا فى أعماقه .. ونحن نقول إننا نعيش على ذكرى أحباء رحلوا أو أقرباء ماتوا .. وهذا يعنى أن وجودهم فى حياتنا واقع أصبح أمرًا .. وهذا يعنى أن وجودهم فى حياتنا اصبح أمرًا مستحيلاً .. وأنا حائر فيك وحائر بك .. ومعك .

فشلت أن أبقيك حقيقة لأننى لا استطيع . ولو كنت قادراً على ذلك لكنت أنت أكبر حقيقة فى حياتى .

وفشلت ان ابقيك حلما لأنك الآن أقرب للسراب ، وفشلت أن أجعلك ذكرى .. فمازلت فى حياتى كيانًا نابضًا حياً اشعر بكل شىء فيه .. ترى ماهى نهاية الرواية ؟ ومتى ستجىء ؟

★ ★ ★

أيهما افضل فى الحب ..؟

سألنى صديقى : أيهما افضل أن أنام ظالماً فى الحب .. أم انام مظلوماً .

قلت : من الخطأ أن تظلم إنساناً أحبك .. ومن الخطأ أيضًا أن تظلم قلبك الذى أحب .. فالظلم هو الظلم سواء وقع عليك أووقع على غيرك .

فإذا ظلمت من تحب فأنت فى الحقيقة تظلم نفسك.. وإذا قبلت الظلم منه فأنت تخطئ فى حق نفسك أيضًا .. فأنت الضحية فى الحالتين.. وأنا لا أحب الظلم فى كل أشكاله سواء

كنت أنا الظالم .. أم كنت أنا المظلوم .. ولكننى لو اخترت أفضل ان انام مظلوماً عن أن انام ظالماً .. لأننى لن أنام .

قال : وما أشكال الظلم فى الحب ؟

قلت : إذا كنت قد أعطيت قلبك لإنسان وفرط فيه .. فهو ظالم .. وإذا تخلى عنك فهو ظالم .. وتختلف درجات الظلم تبدأ بالإهمال .. وتنتهى بالخيانة .. وما بينهما سلسلة طويلة من الجراح والآلام التى تتركها مشاعر الحب فى أعماقنا .. ولهذا تختلف أعماق الجراح التى تصيبنا حينمانحب .. هناك جرح بسيط على سطح الجلد .. وهناك خنجر مسموم يسكن الصدر حتى آخره ، والجرح الأول قابل للعلاج .. والجرح الثانى لا علاج له لأنه لا يترك لنا فرصة للحياة مرة أخرى .

قال صديقى : وماذا أفعل مع امرأة أعطيتها قلبى سنوات طويلة وانسحبت من حياتى دون أن تقول كلمة واحدة .. إنها تذكرنى بالأم التى خرجت فى ليلة شتوية بوليديها الصغير وألقت به فوق الرصيف ولم يسمع منها كلمة وداع واحدة .. ثم ذهبت إلى قصرها الجميل ونامت فى هدوء ، بينما تلقفت الشوارع ابنها الشريد .. إن هذا الابن هو حبنا الذى تخلت عنه وفرطت فيه هذا أنا ياصديقى الآن .. فهل هذا هو جزاء الحب فى هذا الزمان. إنك تكتب كثيراً عن المشاعر ، فأين تضع حكايتى فى قاموس حكاياتك التى نقرؤها معك .

امرأة لم أفرط فيها لحظة واحدة حتى بينى وبين نفسى .. وكانت كل شيء فى حياتى رغم أن حياتى مزدحمة بآلاف الوجوه .. لكننى اخترتها دون كل الناس .. وأسكنتها قلبى .. فهل هذا ياصديقى هو الحب الذى تعلمناه من كتاباتك .. إننى أحملك مسئولية مأساتى حينما صدقت كلامك ومضيت وراء قلبى .. كنت أستطيع أن أقضى أوقاتى مثل كل الناس الذين يحبون ليوم واحد أو يومين ..ولكننى اخترت أسلوبك فى الحب .. فأخلصت .. ووفيت وصدقت العهد مع نفسى ومع الله .. وكان هذا جزائى .

قلت : بداية أرجوك ألا تحملنى مسئولية ما حدث لك ، وأن كتاباتى هى السبب .. فأنا أبحث عن أشياء ربما وجدناها ، وربما خذلتنا، ولم نجد منها شيئًا .. أنا أرسم الحلم للناس ، وليس من مسئوليتى تحقيقه .. إننى أقدر أحزانك خاصة مع تلك المشاعر العميقة التى أحسها من كلامك عن حبيبتك المسافرة التى لم تترك خبراً ولا أثراً ، ولم تحاول قبل أن تمضى أن تترك كلمة وداع أخيرة حتى وإن كانت مؤلمة .

إن الرحمة أهم كثيراً من الحب .. وأنا لا أتصور أن يكون المحب غير رحيم .. فالإنسان الذى أعطاك قلبه وأجمل ما فيه لاينبغى أبداً أن تترك له ألماً يشقيه .. لاأريدك أن تندم على أنك أحببت وأخلصت وكنت كريماً ونبيلاً مع من أحببت ، فهذه صفاتك أنت ولا تتخلى عنها أبداً .. لأنك لن تكون أبداً غير

نفسك .. ولن تستطيع أبدًا أن تعيش نزوة كل يوم وتسميها حباً ، كما يحدث الآن فى زماننا العجيب .. أنت أحببت على طريقتك .. وهذا هو الحب الحقيقى .. أما مانسمعه ونراه الآن فهو هياكل مزيفة لصورة كاذبة للحب .

وفى حالتك أنت لا أجد أبداً ما يستحق أن تندم عليه ، واترك الندم لامرأة أعطيتها قلبك وتخلت عنك دون سبب .. سوف تمضى ياسيدى سنوات وسوف تنام انت هانئًا راضياً مطمئنًا لأنك صدقت حينما أحببت .. أما هى فسوف تبقى صورتك فى خيالها مصدر ألم وعذاب مهما كانت قسوة قلبها ، فالظالم لا ينام ومن الصعب أن ينسى القاتل دماء ضحيته .. وأقول لك عش حياتك كما أنت .. ولاتندم يوما لأنك أحببت ، وإذا كانت حبيبتك قد ألقت طفلها للشوارع بين القطط والذئاب فسوف يبقى أمامها وجهه البرىء ، وهو يصرخ فى كل مكان .

* * *

مازال عطرك فى يدى ..

كان الطريق موحشاً .. ومياه النيل تمشى متثاقلة تتناثر على ضفتيه ونسمات الشتاء البارد تطوف فوق رأسى .. وذكريات اللقاء العابر ترسم صورة الزمن الجميل الذى يزورنا أحيانًا ويمضى كأنه البرق يملأ الحياة ضياء وسرعان ما يغيب .

كان وجهها الحالم يطل فى عينى وبريق عينيها الحزين يصافح خيالى .. لم يكن فى مقدورنا أن نبقى معاً دقيقة واحدة فكل شىء بيننا بحساب .. هى لاتملك قدرها .. وأنا لا أملك قدرى، وكلانا يحمل على ظهره سنوات عمر وأعباء حياة .. ولكننا نحاول دائمًا أن نجد وسط الظلام نقطة ضوء تتسرب داخلنا

ونشعر معها أننا قهرنا المستحيل وتجاوزنا حدود الصعب .. والتقينا رغم قسوة الظروف .

كانت الدقائق تمضى مسرعة بيننا ، وأنا أحاول أن أشبع عينى منها ، وهى تجلس فى كبريائها الواثق وشموخها المترفع وبريق عينيها الذى يحاول أن يرسم فوق ظلال الحزن ابتسامة .

لا أدرى لماذا تذكرت أول لقاء بيننا منذ سنوات.. شعرت أن الأيام زادتها جمالاً .. لم أكن أتصور يومها ونحن نتصافح أننا بدأنا معاً طريقاً .. وأن الأقدار حملتنا إلى هذا الطريق الصعب وأننا اخترنا المستحيل .. وراهنا على التحدى .

وكان طريقنا صعباً للغاية .. فى كل شىء حالت بيننا الظروف .. فى كل خطوة يقف بيننا سد منيع .. وشعرنا يومها أننا نصارع زمناً وظروفاً وواقعاً أليماً فى كل شىء .

وتصورنا ساعتها أن الاستمرار مستحيل .. وأن البقاء مجازفة .. وأننا لن نحتمل أى شىء من هذا كله .

كلانا لديه من الأعباء والمتاعب والمسئوليات ما يكفيه .. وليس لدينا ما نقاوم به إلا المشاعر .. وماذا تفعل المشاعر فى أزمنة الانكسار .. وحاول كل منا أن يطوى مشاعره فى صمت .. حاولنا أن نترك الشجرة بلا ماء وهى فى بداية العمر حتى لا نبكى عليها كثيراً حينما تدوسها الأقدار .. حاولنا أن نغتال ومضة

الإحساس فينا وأن نطفىء قناديل أيامنا التى أضاءت .. حاولنا أن نغلق الأبواب التى فتحناها وتسلل الهواء النقى منها واحتوانا بصفائه ونقائه وصدقه .

حاولنا ذلك وأكثر ..

واكتشفنا أن الشجرة كبرت رغم أننا بخلنا عليها أحياناً بالدفء والماء والرعاية وسرعان ما وجدناها تقف شامخة بيننا .

ورأينا القناديل التى حاولنا أن نطفأها وقد زاد عددها فى أعماقنا وازدادت ضياءً وبهاءً وجمالاً .

وشعرنا أن الهواء النقى الذى تسرب إلى جوانحنا قد طهرنا من أشياء كثيرة فأصبحنا أكثر تجردًا وإحساسًا وصدقاً مع أنفسنا ومع الناس .

واكتشفنا أن الطريق الذى حاولنا أن نهرب إليه حملنا إلى نفس البداية .. وأن كل الطرق توصلنا إلى شىء واحد .. وإحساس واحد ذاب فى كيان واحد .

واستسلمنا لأقدارنا ومشاعرنا، وحاولنا أن نرضى بالقليل .. ثم اكتشفنا أن ما تصورناه قليلاً أصبح قادراً على أن يمنحنا الدفء والأمان والاستقرار والراحة .. وعرفنا أن المشاعر ليست بمساحاتها الواسعة .. ولكن المشاعر تقاس بدرجة الصدق فيها ..

قد تملك ألف فدان ، وتشعر أنها جرداء لا ماء فيها ولا ثمار .. وقد تمتلك مساحة صغيرة من الزمن والعمر مع من تحب وتشعر أنها تغنيك عن كل الدنيا .

طافت فى رأسى كل هذه الأشياء والصور وأنا أسرق معها من الزمن بعض اللحظات ويمضى كل منا فى طريق .

كانت أشجار النخيل على ضفاف النيل تودعها فى حزن .. وكانت نسمات الشتاء تصافح خصلات شعرها الأسود وأنا أراقبها من بعيد وكان عطرها فى يدى آخر ما تركت لى من لقاء عابر قصير .. وكما جاءت على غير موعد .. رحلت على غير موعد .. مثل كل الأشياء الجميلة فى حياة الإنسان .. ومع الرحيل بدأنا رحلة أخرى مع حلم جميل يزورنا عادة على غير موعد .. أن يجمعنا اللقاء رغم قسوة الظروف .

★ ★ ★

الفهـرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

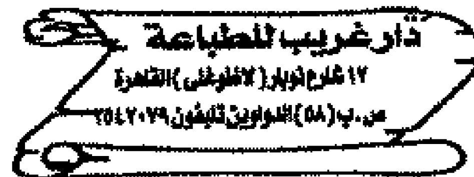
الموضوع	الصفحة

مؤلفات الشاعر

فـــاروق جـويـــدة

- أوراق من حديقة أكتوبر «ديوان شعر» ١٩٧٤.
- حبيبتى لا ترحلى «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٥.
- أموال مصر كيف ضاعت «اقتصاد» الطبعة الأولى ١٩٧٦.
- ويبقى الحب «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٧.
- وللأشواق عودة «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٨.
- فى عينيك عنوانى «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٧٩.
- الوزير العاشق «مسرحية شعرية» الطبعة الأولى ١٩٨١.
- بلاد السحر والخيال «أدب رحلات» الطبعة الأولى ١٩٨١.
- دائما أنت بقلبى «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٨١.
- لأنى أحبك «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٨٢.
- شىء سيبقى بيننا «ديوان شعر» ١٩٨٣.
- طاوعنى قلبى فى النسيان «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٨٦.
- لن أبيع العمر «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٨٩.

- زمان القهر علمنى «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٩٠.
- كانت لنا أوطان «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٩١.
- آخر ليالى الحلم «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٩٣.
- قالت «خواطر نثرية» الطبعة الأولى ١٩٩٠.
- شباب فى الزمن الخطأ الطبعة الأولى ١٩٩٢.
- دماء على ستار الكعبة «مسرحية شعرية» الطبعة الأولى ١٩٨٧.
- الخديوى «مسرحية شعرية» الطبعة الأولى ١٩٩٤.
- فاروق جويدة «المجموعة الكاملة».
- ألف وجه للقمر «ديوان شعر» الطبعة الأولى ١٩٩٧.
- عمر من ورق «خواطر نثرية» الطبعة الأولى ١٩٩٧.
- قضايا ساخنة جدًا الطبعة الأولى ١٩٩٧.
- عبد الوهاب وأوراقه الخاصة الطبعة الأولى ١٩٩٨.
- لو أننا لم نفترق الطبعة الأولى ١٩٩٨.
- ليس للحب آوان «خواطر نثرية» الطبعة الأولى ١٩٩٨.
- آثار مصر .. كيف هانت الطبعة الأولى ١٩٩٩.
- حبيبتى .. ولكن «خواطر نثرية» الطبعة الأولى ١٩٩٩.


دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين تليفون ٧٩٠٢٠٥٤



من أجل هذا يبقى فى الحب سر
غامض لا نعرف أسبابه ولا نستطيع
أن نصل إلى أعماقه .. وهذا ما
يفسر لنا مشاعرنا حينما تتصارع
فترى قلبك يعيش مع إنسان بعيد، بينما الجسد يعيش مع
شخص آخر، وهذا الانشطار يمثل أعمق أنواع العذاب
النفسى أن تملك ما لا تريد، وأن تشقى بمن تريد.. أن
ترى البعيد ولا ترى القريب أن تسكنك امرأة هاربة ..
وتهرب من عشرات مقيمات .. أن تسكب عمرك قطرة
قطرة .. فى أرض لا تريدها بينما تبعدك آلاف الأميال
عن أرض سكنت فيها وسكنت فيك .. ما أصعب أن تجد
ما لا تريد .. وألا تجد ما تريد.

الثمن ٦٠٠ قرشاً